

كلمات للضحك و الحرية

على سالم



إهداء 2006

الأستاذة / نوال سيد مصطفى

القاهرة

كتاب اليوم

كلمات للضحك والحرية

على سالم



رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نـــوال مـصـطـفـى



ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٤٧٨
مارس ٢٠٠٦

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم
٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٥٨٠٦٢٣٥
تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغـلاف:
عمرو فهمى

الإخراج الفنى:
عبد القادر على

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع خارج مصر

سوريا ١٠٠ ل.س - لبنان ٤٠٠٠ ل.ل - الأردن ١,٥ دينار الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريال - البحرين ١ دينار قطر ١٠ ريال - الإمارات ١٠ درهم - سلطنة عمان ١ ريال تونس ٢ دينار - المغرب ٣٠ درهم - اليمن ٣٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ جك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

الاشتراك السنوى

داخل مصر	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

هذا الكاتب.. وهذا الكتاب

لا نصدق على سالم عندما يقول فى كتابه الذى ننشره فى كتاب اليوم هذا الشهر «كلمات للضحك والحرية» يارب ابعدنى عن السياسة أو ابعدها عنى، لأنها تفقدنى روح المرح وتجعل منى كاتبا سمجا.. وارزقنى بكل ما هو ظريف وطريف من الأفكار، واجعل منى مصباحا يضىء الطريق للناس.. فعلى سالم معجون بالسياسة وما يدور حوله، مهموم بها لكنه يعلق على القضايا السياسية بأسلوبه الساخر فلأول وهلة تعتقد أنه يحكى لك قصة طريفة مسلية لكى نضحك معها، لكنك سرعان ما تكتشف أنها مرتبطة بوضوح بقضية سياسية نعيشها فى حياتنا المعاصرة، مثل حكاية الطفل الذى يرفض أن يغنى مع المذيعة فى أحد برامج التليفزيون، وهو ما فسره كبار المسئولين فى هذا الجهاز العتيق بنظرية المؤامرة وان هذا الموقف مدبر لإحراج عدد من قياداته لصالح أطراف أخرى، وقد فشلت جميع المحاولات لإرغام الطفل على الغناء..

لا ترغيب نفع ولا ترهيب جاب نتيجة فالاستمتاع بالغناء لا يمكن أن يتم بالأمر أو القهر، لذلك فالطفل عندما أصبح حرا طليقا متحررا من أى ضغوط وعندما شاهد النيل من سيارة أمه بدأ يغنى بقوة وعذوبة آه ياليل.

وينتقد على سالم ظاهرة «الادعاء» و«الفهلوة» فى حياتنا خلال حكايته عن فرقة حسب الله التاريخية الشهيرة بشارع محمد على، ففى أوقات كثيرة كان يزداد الطلب على هذه الفرقة فيعجزون عن توفير العدد الكافى من العازفين، ولما كان الإنسان تحت ضغط الحاجة يلجأ للاختراع أو الاحتيال، فقد اخترع صاحب هذه الفرقة أسلوبا جديدا فى العمل وهو ليس مهما أن تتكون الفرقة من عازفين جيدين أو متوسطى القيمة. الأكثر أهمية أن يكون عددها كافيا وأداؤها ظاهريا مقنعا، يكفى أربعة عازفين فقط أما الباقى فسيرتدون ثياب العازفين ويمسكون بالآلات النحاسية وينفخون فيها، ويتمايلون بأجسامهم وهم يمشون على الايقاع، وهكذا ظهرت مهنة جديدة هى الادعاء بأنك تعرف بينما أنت فى حقيقة الأمر تنفخ، وكانوا يسمونها «لابس مزيكا» فكم فى حياتنا السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والاجتماعية أيضا من «لابس مزيكا» نحسبه يعزف وهو فى الحقيقة ينفخ!

ويسخر على سالم أيضا من حالة ا لانجذاب للماضى والعيش فيه والتى تسيطر على معظم المصريين ويشبهها بأغنية عبدالوهاب الشهيرة «بافكر فى اللى ناسينى» حيث وصف كاتب الأغنية بدقة حالته وتنبأ بحالتنا، فالأغلبية تبحث عن مجدها فى الماضى البعيد والقديم، فهناك من يشرب عصير الماركسية ذا المذاق الحامض، وهناك من يشرب رحيق السلفية المعتق الذى

يطيح بالعقل بعيدا فى لحظات، وهناك من يشرب منقوع مقاومة الحرية، ولأنهم لا يشربون بالفعل كما تقول الأغنية «أشرب لوحدى كاس فاضى دايما بافكر فيه مليان» فإنهم لا يدفعون الحساب الذى دفعوه مقدما عندما باعوا المستقبل واشتروا الماضى الذى كان لهم أمجاد فيه زمان.

وتخرج من حكاية الدجالة التى أرادت أن تخدع محمد على ليبوس يدها على أنها يد ملك الجن كما يؤكد على سالم أن الدجال لا يسعى فقط لخداع الحاكم أو مصادقته فهدفه الأهم أن ينضوى الحاكم تحت لوائه، فالدجال لا يريد ممارسة السلطة لعجزه عن تحمل تبعاتها، ولكنه يريد أن يمارسها الآخرون لحسابه وللأسف تخطى الدجل عالم الجن والغيبيات فعرف طريقه لكل مهنة أو بالأدق عرفت كل مهنة طريقها إليه، فهناك الصنايعى الدجال، والكاتب الدجال، والمثقف الدجال والفنان الدجال والسياسى الدجال، وما تستنتجه صراحة من على سالم أن كل دجال يعمل على حماية زميله الدجال، لأن انكشافه يعنى الكشف عن الدجل فى كل مجال وما أكثرهم من حولنا.

وفى النهاية فإنك عندما تقرأ هذا الكتاب ستجد نفسك لا شعوريا تضحك على كل ما نعيش فيه، فهى كلمات للضحك والحرية معا!

نوال مصطفى

هى والدة حضرتك إسمها إيه ؟



منذ أكثر من عشرة أعوام، ندوة عن المسرح فى تليفزيون عاصمة عربية، فى المطار عند عودتى، موظف الجوازات ارتسمت على وجهه علامات الدهشة والمفاجأة بعد أن أدخل إسمى إلى الكمبيوتر، عاد يتفرس فى ملامح وجهى ثم سألنى : والدة حضرتك اسمها إيه يا أستاذ على؟

أجبته: إسمها زينب.. زينب حسين الرشيدى.

كتب الإسم، ثم فوجئت به وقد جحظت عيناه ونظر إلىّ نظرة أعرفها جيدا، هى مزيج من الإحساس بالزهو والإنجاز ثم عاد يكتب أشياء أخرى، عاد يحدق فى شاشة الكمبيوتر ثم نظر إلىّ، كان من السهل ترجمة نظرته: آه.. أخيرا قفشتك يا حلو..

فقلت له: ماذا ..؟ أنا مطلوب عندكم إذن.. أنا فلان الفلانى المؤلف المسرحى المصرى والكاتب الصحفى.. لابد أنكم تطلبوننى.. لأنه من المستحيل أن يكون هناك شخصان بنفس الإسم ولدا فى نفس الليلة فى شبرا البلد وكل منهما أمه اسمها زينب وابوه اسمه محمد سالم..

يبدو أن صوتى داخلته بعض العصبية فقال لى مهدئا: دى مجرد إجراءات يا أستاذ على... حضرتك متأكد إن والدة حضرتك إسمها زينب؟

أدركت على الفور أننى مقبل على موقف عبثى، فى لحظة أدركت أننى عاجز عن إثبات شخصيتى.. بالتأكيد هم يريدون شخصا آخر، تذكرت شيئا، كنت قد نشرت منذ أسابيع كتابى «اعترافات زوج»، الفنان مصطفى حسين رسمنى على الغلاف ، زوج يرتدى بيجاما وحول أحد عينيه هالة زرقاء ناتجة عن لكمة، كانت ملامحى واضحة تماما، إسمى كان فى أعلى الغلاف، وفى ظهر الغلاف كانت صورتى الفوتوغرافية، أحسست أننى قد انتشلت من هوة سحيقة، كانت معى نسخة متبقية فى حقيبة يدى، أخرجت الكتاب وقدمته له: هذا هو أنا.. فهل تريدون هذا الشخص الذى هو أنا؟

ألقى نظرة سريعة على الكتاب بلا مبالاة، من السهل طبعا على الشخصية المطلوبة أن تزور غلافا لكتاب. قال: حضرتك حا تروح دلوقت مع الأستاذ..

فى تلك اللحظة تذكرت ما قرأته من قبل عن أشخاص، لابد أنهم راحوا مع الأستاذ واختفوا لعدة شهور قبل أن يثبتوا أنهم ليسوا مطلوبين.

عدت أسأله: فهمنى.. هل حضراتكم عاوزين المؤلف المصرى فلان.. ليه؟

نبرات صوته اكتسبت قدرا من الرقة وهو يقول: لا.. ده حضرتك حا تروح المكتب.. لحد ما نحل لك المشكلة دى؟. عشان ما حدش يوقفك تانى..

ووجدت نفسى فى مكتب مع شاب غاية فى التهذيب ككل ضباط

المباحث فى العالم كلـه، قدمت له نفسى، مرة أخرى قدمت له كتابى كمستند، كلمته عن مهنتى، وعن الندوة التى حضرتها فى تليفزيون بلدهم، والشخص الذى دعانى ثم قلت له: من فضلك.. أنا مستعد أقعد معاك لأى وقت.. لكن للأسف شنطتى طلعت الطيارة، يعنى ممكن تضيع..

فقال بحماسة: ده لو فاتتك الطيارة يا أستاذ على .. نطلع لك طيارة خاصة..

آه.. الرجل لم يصدق كلمة واحدة مما قلته، ترى من هو الشخص المطلوب؟

قلت له: عارف حضرتك، أنا حازعل قوى لو الشخص المطلوب طلع واحد نشال أو حرامى.. لازم الشخص اللى له نفس إسمى وإسم أمى ومولود فى نفس اللحظة اللى اتولدت فيها.. لازم يكون إرهابى عالمى..

رد على بحماس كاذب: ليه تسميه إرهابى.. فيه ناس فيهم أبطال وطنيين.

قلت له: حضرتك عاوز تجيب رجلى... حضرتك مش مصدق ولا كلمة من اللى باقوله..

بنفس الحماس قال: بالعكس .. أنا مصدقك والله.. بس فيه إجراءات ده لازم تتعمل.. هى أم حضرتك اسمها إيه بالضبط..؟

- إسمها زينب.

- ما لهاش إسم تانى؟

- أنا شخصيا ما عرفش... كل اللى أعرفه إنهم فى العيلة كان إسم الدلع بتاعها زوبة.. هل الراجل اللى انتم عاوزينه، أمه إسمها زوبة.. والا زينب؟

ـ انت عصبى ليه ياراجل..؟ هو ما حدش وقفك وانت داخل؟

ـ لأ.. واحد ظابط من عندكم من طرف مسئول كبير كان فى انتظارى..

ـ وكيف عرفت هذا المسئول..؟

ـ لا أعرفه.. هو أخو واحد صديق لعديلى.. عديلى أبلغ هذا الأخ بأننى قادم إلى بلدكم، فأبلغ أخاه الذى أرسل واحدا من مساعديه لكى يسهل إجراءات خروجى.. تماما كما يحدث مع أى شخصية هامة، وأنا بالمناسبة شخصية هامة.. ماذا حدث، ألم يختموا باسبورى بختم الدخول؟

ـ مختوم.. عاوزك تكلمنى عن المسرح.. كيف يظهر العرض المسرحى على المسرح.. ما هى الخطوات التى تسبق ذلك.

استسلمت تماما، بدأت أحدثه عن عملية انتاج عرض مسرحى بدءا من كتابة النص حتى يوم العرض، خرج من الغرفة ثم عاد مرة أخرى ليقول: اتفضل حضرتك..

فى اليوم التالى اتصل بى المسئول الكبير فى القاهرة، من الواضح أنه قد بلغه ما حدث، اعتذر لى ووعدنى أنه سيتخذ اللازم لعدم تكرار ما حدث ثم سألنى: هى والدة حضرتك اسمها إيه؟

ومرت أعوام، وسافرت فى ندوة أخرى عن السلام كان غريمى فيها هو الزميل صلاح عيسى، عند خروجنا من المطار، مر صلاح بسهولة مع إنى واثق بأن اسمه مكتوب على قائمة ترقب وصول فى كل مطارات المنطقة، واستوقفنى موظف الجوازات، حدق فى شاشة التليفزيون ثم سألنى فى شك: أم حضرتك اسمها إيه؟

فأجبت هامسا فى استسلام: إسمها حنفى.



طفل لا يريد أن يغنى

الصديق حلمى النمنم، كتب يقول معلقا على واقعة فى التليفزيون. اصطحبت المذيعة طفلا بريئا ربما يكون عمره خمس سنوات وطلبت منه أن يغنى، وببــــراءة رد الطفل إنه لن يغنى، وتدخلت المذيعة لتقول للطفل أنه أخبرها قبل التسجيل بأنه سيغنى ورد الطفل بصدق: لأ .. مش حاغنى.

فردت عليه بابتسامة مفتعلة: إذن سوف تحضر الأسبوع القادم وتغنى.

فقال الطفل بإصرار: لأ .. مش حاغنى.

وهنا قالت له المذيعة بصوت أقرب إلى الشخط: روح لمامتك وقول لها ما تعملش لنا دوشة بيك تانى.. لأنك فى الآخر ما بتقولش حاجة.

هذا هو ما تسنى للكاتب الزميل أن يعرفه، أما ماحدث بعد ذلك فهو يدخل فى باب الشائعات والنميمة التى يصعب التحقق من صحتها والتى يمكن تلخيصها فيما يلى، شعرت الأم بغضب شديد وجذبته بشدة من ذراعه حتى كادت تخلعه وصرخت فى وجهه: أعمل فيك إيه..؟ ده أنا اتذليت للى يسوى واللى ما يسواش عشان تطلع فى التليفزيون...حمادة إبن تانت خديجة بيطلع فى التليفزيون.. سوسو بنت خالتك بتطلع وتغنى فى التليفزيون.. عبده

ابن البواب بيطلع ويقول منولوجات.. أشرف ابن عطيات اللى ما بيعرفش ينطق بيطلع فى التليفزيون .. أعمل فيك إيه؟.. أعمل فيك إيه؟

كان الطفل ينظر إليها بثبات وفزع ولم ينقذه منها إلا رنين التليفون المحمول، على الفور تماسكت وردت برقة: أهلا وسهلا يا فندم... حاضر يافندم.. ها جيلك على طول.

أنهت المكالمة وقالت له فى غضب مكتوم: حا تودينى فى داهية.. قدامى.. قدامى..

سحبته من ذراعه فى قسوة وصعدت به أحد الأدوار العليا، سكرتيرة مسئولة كبيرة كانت فى انتظارها عند باب الأسانسير، نظرت السكرتيرة بغضب للطفل وقالت له فى همس: إيه المصيبة اللى انت عملتها دى؟

أدخلتهما على الفور على المسئولة التى رحبت بهما بشدة: أهلا أهلا يا مدام... أهلا أهلا يا حبيبى.. صحيح إنت ما غنيتش بس صورتك كانت طالعة فى الكادر زى القمر... قل لى بقى يا حبيبى.. مش عاوز تغنى ليه؟

رد الطفل: ما عرفش.. لقيت نفسى مش عاوز أغنى.

قالت المسئولة: ها ها .. شربات.. ليه يا حبيبى..؟ كل الناس بتغنى.. قل لى بصراحة.. حد طلب منك ما تغنيش...؟

التفتت إلى أمه وقالت لها بجفاء: أنا عاوزة أعرف الحكاية دى وراها إيه... أنا عاوزة أعرف مين اللى حرضه على إنه ما يغنيش.. هل زينب ورا الحكاية دى..؟ ما هو أنا عارفة الصلة اللى بتربطك بيها... هل هى اللى حرضته على الحكاية دى عشان تحرجنى... عشان يتقال على إن الناس فى عهدى بتيجى التليفزيون وما بتغنيش.. (وقد اكفهر وجهها) اسمع يا واد انت يا واد.. حاتنزل من هنا على الاستديو.. وتغنى على طول.. وإلا ودينى حاطلع عينك

وعين اللى يتشددوا لك.. مش علىّ أنا الحركات دى.. اتفضل روح اتنيل غنى..

أجاب فى تصميم: مش حاغنى..

انفجرت المسئولة: كده؟!... إدينى الخرزانة يا حكمت..

فى تلك اللحظة رن جرس التليفون : ألو.. أهلا يا فندم... لا أبدا مفيش حاجة، هو سوء تفاهم بسيط.. حا يغنى يافندم، حا يغنى... ده هو يا فندم اللى قعد يترجانى إنه يغنى.. وحا ينزل حالا يغنى... لا يافندم.. ده حادث فردى ما لوش صلة بحاجة.. لأ.. ما لوش صلة باستقالة الأستاذ ابراهيم... هو مش أكتر من عيل غلس بيهزر معانا.. اطمن يافندم الموقف تحت السيطرة.

نظرت إلى الطفل وبذلت مجهودا كبيرا لتبدو رقيقة: إسمع يا حبيبى.. أنا آسفة لو كنت زعلتك.. أنا برضه زى مامتك.. أنا طبعا مقدرة موقفك، واحد فنان زيك ما يعرفش يغنى من غير مزيكة، عشان كده أنا حا جيب لك أحسن فرقة فى مصر.. بس ياسيدى .. ولا تزعل.

رفعت سماعة التليفون وطلبت رقما: ألو.. إزيك يا مايسترو.. أهلا بيك.. إسمع ياسيدى أنا عاوزاك إنت والفرقة... دلوقت حالا.. أيوة، ظرف طارئ فى منتهى الأهمية.. حا ستناك فى الاستديو.

عادت تقول للطفل بابتسامة عريضة: بس يا سيدى.. حا تعمل بروفات مع أهم فرقة فى مصر وبعدين تسجل.. لحظة واحدة.. افتكرت حاجة..

طلبت رقما آخر : ألو.. اسمع ياسيدى، اكتشفت لك صوت معجزة.. طفل .. عنده خمس سنين.. بس صوت إيه... عارف كارم محمود فى عزّه ؟ صوته أحسن منه... أنا حاسجل له بعد شوية.. يا ريت تيجى تسمعه.

عادت تبتسم فى حنان : إيه رأيك يا حبيبى.. مبسوط.. ياالله بقى يا حبيبى عشان تنزل تغنى..

قال الطفل بصوت واضح: مش حا غنى...

صرخت فى وجهه: ليه وحياة أمك..

أجاب صارخا هو الآخر: مش عاوز أغنى يا تانت ... مش عاوز.. ما ليش مزاج..

التفتت إلى أمه وصرخت فى وجهها: إيه حكايتك يا ست انت.. مين اللى رماكى علينا.. اتفضلى خليه يغنى.. اتفضلى روحى اقعدى فى السكرتارية لحد ماتقنعيه.. اتفضلى ياالله برة.. برّه.

بعد ساعتين تقريبا خرجت السيدة ومعها إبنها من مبنى التليفزيون بعد أن فشل العاملون فى المبنى (٣٥ ألفا) فى إقناعه بأن يغنى. ركبت السيدة سيارتها وركب هو فى المقعد الخلفى، سارت السيارة على الكورنيش، نظر الطفل إلى النيل وبدأ يغنى بقوة وعذوبة.. ياليل..



لابسين مزيكا

يمتد شارع محمد على من ميدان العتبة إلى القلعة، ولأن الشوارع فيما مضى كانت ذات ملامح مثل البشر تحدد شخصيتها، كانت أهم ملامح هذا الشارع أنه شارع الفن والفنانين، كان يعيش فيه الموسيقيون والمطربون والراقصات وأيضا صناع الآلات الموسيقية وخاصة الوترية. فى ذلك الوقت البعيد كانت الناس تستعين بفرق الموسيقى النحاسية فى الأفراح والجنازات بالإضافة لعدد من المناسبات. كانت هذه الفرق مشهورة بإسم فرقة حسب الله، ربما كان صاحب هذا الإسم معروفا فى الماضى البعيد إلى الدرجة التى جعلته ماركة مسجلة لكل فرق الموسيقى النحاسية. و كانت هذه الفرق تتكون من عازفين ممتازين بالفعل ولم يعرفوا ما يسمى بفترات الكساد فالناس لاتكف عن الفرح والحزن، على العكس من ذلك كان يحدث فى أوقات كثيرة أن يزداد عليهم الطلب، فيعجزون عن توفير العدد الكافى من العازفين، ولما كان الإنسان تحت ضغط الحاجة يلجأ للإختراع أو الاحتيال، لذلك اخترع أصحاب هذه الفرق أسلوبا جديدا فى العمل، ليس مهما أن تتكون الفرقة من عازفين جيدين أو متوسطى القيمة، الأكثر أهمية أن يكون عددها مقنعا وأداؤها ظاهريا مقنعا، يكفى أربعة عازفين

فقط أما الباقون فسيرتدون ثياب العازفين الكاكى المزركشة ويمسكون بالآلات النحاسية وينفخون فيها وهم يحركون أصابعهم على مفاتيحها ويتمايلون بأجسامهم وهم يمشون على الإيقاع.

هكذا ظهرت إلى الوجود مهنة جديدة هى الادعاء بأنك تعزف بينما أنت فى حقيقة الأمر تنفخ، وكانوا يسمونها «لابس مزيكا» وكان هؤلاء النافخون يجلسون على مقاهى شارع محمد على وخاصة تلك القهوة الشهيرة، قهوة التجارة التى يعرفها جيدا فنانو تلك الأيام. كان سماسرة تلك الفرق يمرون على هذه المقاهى فى حالات الزنقة ويوجهون سؤالا واحدا لأى شخص يتوسمون فيه الميل إلى النفخ: تلبس مزيكا؟

هكذا كان يتم استيعاب الطلب المتزايد على هذه الفرق بهذه الطريقة المبدعة التى تعجز كل الأمم عن مباراتنا فيها. هكذا أيضا تمت إضافة وصف جديد لقاموس التخاطب اليومى عند المصريين يصفون به هؤلاء الذين يتظاهرون بأنهم يعملون بجد وحماس بينما هم فى واقع الأمر يتظاهرون بذلك لعجزهم عن الفعل، أى أنهم ينفخون ولا يعزفون.غير أنه لابد من ملاحظة أنهم ليسوا نصابين ولا مزورين، هم فقط لابسين مزيكا لعجزهم عن العزف. ستجد مبنى من عشرين طابقا يعمل به ثلاثون ألف شخص لابسين مزيكا ومائة شخص فقط يعملون. ستجد صحيفة بها عشرة آلاف شخص لابسين مزيكا بينما عشرة أشخاص فقط يعملون.

لذلك ستجد الأماكن التى بها عمل كثير تعانى من قلة الأيدى العاملة، بينما تشكو الإدارات ذات العمل الخفيف مما يسمونه العمالة الزائدة. لاتوجد مشكلة فى كل ذلك طالما كان عدد العازفين كافيا للعزف بحيث تسمع الناس صوت الموسيقى، أما الكارثة الحقيقية فهى عندما يتكاثر عدد النافخين فيشعرون بأن

العازفين أقلية ويتعاملون معهم على هذا الأساس أى يطردونهم من الأوركستر. فتكون النتيجة أن تتصور الناس فى كل مجالات العمل أن الهدف الأساسى هو النفخ والحركة بانسجام على نغمات لاوجود لها.

ترى أما زالت فرق حسب الله موجودة فى شارع محمد على وهل هى مازالت تعانى من كثرة الطلب عليها أم أنها تعانى من الكساد بعد ظهور التكنولوجيا الجديدة فى مجال الموسيقى، التى تتسم بالنصب والتزوير هى الأخرى بعد ظهور الـ «سى دى» الذى يوضع داخل الكمبيوتر فى الأورج لمصاحبة غناء المطرب فيخيل إلى المستمعين أن عازف الأورج هو صاحب هذا العزف العظيم. حتى الموسيقى نفسها هذه الأيام لابسة مزيكا.

لنفرض أننى ذهبت الآن وجلست على قهوة التجارة، هل سيأتى من يسألنى: تلبس مزيكا؟

بحثا عن الإجابة كان يجب أن أذهب إلى هناك، قابلنى الجرسون بابتسامة عريضة ثم سألنى: فرح.. طهور.. عيد ميلاد.. عودة من الحج.. عودة من العمرة...؟

أجبته: لأ.. شكرا .. اعمل لى قهوة سادة..

لاحظت شخصا عجوزا يجلس على مقربة منى مستغرقا فى شرب الشيشة، لاحظت أنه يتكلم مع نفسه بصوت هامس، أنا أفعل ذلك أيضا فى الكافيتريا التى أكتب فيها، نظر لى فابتسمت له بود، سألنى: نتشرف.

فأجبته: أنا فلان.. فنان برضه.. بس باشتغل كاتب صحفى دلوقت..وحضرتك؟

أجاب بحزن: أنا .. أنا زبون.

تدخل الجارسون : ده الأستاذ عبده ساكس.. ده أحسن واحد

فى شارع محمد على يعزف ساكسفون... بس هو اللى مش عاوز يشتغل... كل شوية يطلبوه وهو اللى بيرفض..

قال الرجل: لاتصدق ذلك...لست أرفض العمل.. لست أرفض العزف.. أنا أرفض النفخ..

مرة أخرى عاد الجرسون يقول: زملاؤه يشكون منه مر الشكوى.... هناك «سى دى» وهناك أورج يقوم بالعمل كله... المطلوب فقط من الفرقة أن تنفخ فى العدة بانسجام...

صاح الرجل: هم ينشزون..

قال الجرسون: ياعم فوق بقى من اللى انت فيه... مكبرات الصوت العالية تدارى النشاز.. ياعم كل عيش ..إشمعنى انت بس اللى عاوز تعزف... كل الفرق زعلانة منه.

قال الرجل بهدوء: بس أنا مش زعلان من نفسى.. أن أعمل يعنى أن أعزف بقوة وعذوبة ملتزما فقط بحروف النوتة الموسيقية التى أحفظها عن ظهر قلب.. لم يحدث فى شبابى أن لبست مزيكا هل ألبسها فى شيخوختى؟ سأجلس فى مكانى هنا إلى أن يأتى شخص يطلب منى أن أعزف بقوة وعذوبة.. شخص لا يكره الموسيقى.



هل تشرب كأسك فارغة؟

لعل موجة البرد الأخيرة هى التى ذكرتنى بليلة قديمة فى شتاء ١٩٥٧ فى صحراء العباسية قبل أن تزحف عليها علب الإسمنت. فى تلك الليلة فى خيمتى فى سلاح الإشارة، الفصيلة الخامسة، السرية الثانية، فى تلك اللحظات العذبة التى تسبق النوم من فرط الإجهاد، احتضن زميلى سامى الشاهد عوده وأخذ يغنى بصوت هامس، كانت الأغنية جديدة وعذبة، بافكر فى اللى ناسينى وبانسى اللى فاكرنى من غناء وتلحين محمد عبد الوهاب، آسف لأنى نسيت إسم الشاعر. ومنذ أيام وفى راديو السيارة، استمعت لنفس الأغنية من محطة إذاعة تخصصت فى تقديم الغناء القديم ويسميها سائقو التاكسيات محطة العجائز ولكن هذه المرة لم أستسلم للاستمتاع بها فقد فوجئت بعقلى يقبض على الأغنية ويفردها على مائدة التحليل. كثيرة هى المرات التى يستشهد فيها فرويد بالأساطير وبأبيات من الملاحم الشعرية القديمة، الشاعر العظيم لا يعبر عن ذاته كما يتصور الناس، وما تسميه ذات الشاعر ليس إلا نافذة يطل منها على العقل

الجمعى لمن يعيش بينهم. الحالة التى يمر بها لم تكن حالته، بل كانت الحالة التى سيكون عليها مجتمعه، يقول رول ماى وهو طبيب نفسى معالج إن العيادة النفسية عندما تتردد عليها حالات مرضية متشابهة فإنها تقوم بوظيفة تنبؤية تشير إلى ما سيكون عليه المجتمع بعد قليل من الوقت.

الأغنية تصف بدقة حالة شخص مصاب باضطراب نفسى شديد، إنه يفكر فى هؤلاء الذين يتجاهلونه، ويبيع هؤلاء الذين اشتروه، هو نموذج سلبى بكل المقاييس، غير أن شجاعته و صدقه الشديدين فى عرض حالته هما بالتحديد ما أنجاه من المرض النفسى.

عندما يقول الشاعر: وأقول يا عين ليه تبكى، ما دام الليل مالوش آخر؟

فهذه حالة اكتئاب حادة بما يصاحبها عادة من يأس لا حد له، أكثر من ذلك، هو يشعر بارتياح شديد لهذا الليل الأبدى، هو لايعترض على ابديته، بل يعترض على دموعه ويطلب من عينيه أن تكفا عن البكاء، وكأنه يريد التحول إلى صخرة باردة لا حس فيها.

عندما يشعر أمرؤ القيس بنفس الإحساس بالاكتئاب، ويعذبه ذلك الليل الذى يبدو أن لا نهاية له، فإنه لا يستسلم لذلك، بل على الأقل يطلب منه أن ينجلى مع علمه بأنه لن يكون أفضل حالا أثناء النهار.

لقد استجاب الملحن المغنى لهذه الأغنية، كما استجابت لها واستمتعت بها الناس لسبب بسيط ومؤكد، هو أن نوبة الاكتئاب كانت قد بدأت بالفعل فى الزحف على الجميع. لم تكن الشعارات الصاخبة والأصوات العالية فى ذلك الوقت إلا حيلة دفاعية لإخفاء هذا الإحساس بالاكتئاب. عند هذا الحد يعجز الإنسان عن التقدم خطوة واحدة إلى الأمام، ويبدأ على الفور فى العودة إلى الوراء..

إلى الماضى ولكن أى ماض. هو لايعرف بالتحديد مواصفات محطة الماضى التى سيعود إليها، غير أنه سيبحث عنها، وهنا يصل الشاعر إلى درجة من العبقرية والصدق فى وصف حالته ـ التى ستكون هى نفسها حالة الناس بعد سنوات قليلة ـ وذلك عندما يقول : أروح أدوّر على ماضى.. كان لى فيه حب زمان.

كما ترى، هو يعود إلى الوراء بحثا عن هذا الماضى الذى كان يتمتع فيه بالحب، أى بالتقدير والإعجاب، بمعنى أدق هو يعود إلى الوراء بحثا عن لحظة كان يشعر فيها باحترام الآخرين وتقديرهم له، وبالفعل لم تمر أعوام إلا وسار وراءه مئات الألوف إلى الوراء ، وبدأت الرحلة إلى الأندلس، أقرب محطة فى الماضى شعروا فيها بالتقدير والاحترام ، هناك بالطبع من عاد يبحث عن ماض أبعد، بل هناك من عاد يبحث عنه فى الكهوف.

ولكن الصورة كما رسمها لم تكن كافية لشرح رحلته التعسة إلى الوراء بحثا عن الحب، لذلك أضاف: أشرب لوحدى كاس فاضى دايما أفكر فيه مليان.

أن يشرب وحده بغير نديم فهذه مأساة فى حد ذاتها، فمعنى ذلك أنه لا أحد يريد أن يقترب منه، وعندما يشرب من كأس فارغة، فهذه لحظة عدم و عبث تمثل أعلى درجات الألم، أما المأساة الأعظم حقا، فهى أنه (يفكر) فى أن هذا الكأس ممتلئة. لقد عاد إلى الماضى يبحث عن حبيب لا يعرف له محل إقامة، وكانت النتيجة أن يجلس وحده فى هذا (الوراء) يشرب من كاس فارغة يفكر فى أنها ممتلئة، هو لا يظنها أو يتوهمها ممتلئة وإلا كان شخصا أصابه الجنون، بل (يفكر) فى أنها ممتلئة. لقد وصف الشاعر بدقة حالته وتنبأ بحالتنا، أريدك أن تتصور بارا طويلا يجلس إليه مئات البشر، كل منهم يجلس بمفرده وأمامه كأس وقد انهمك كل منهم فى التفكير فى أنها ممتلئة، لذلك أخذ يحتسيه فى

بطء وتلذذ، بشر يشعرون بالوحدة وكؤوس فارغة فى رحلة بحث تعسة عن جدوى فى الماضى القديم والبعيد، هناك من يشرب عصير الماركسية اللينينية ذا المذاق الحامض ،و هناك من يشرب رحيق الأسلاف المعتق الذى يطيح بالعقل بعيدا فى لحظات، وهناك من يشرب منقوع مقاومة الحرية. ولأنهم لا يشربون شيئا بالفعل، لذلك لايدفعون ، لقد دفعوا جميعا الحساب مقدما وذلك عندما باعوا المستقبل واشتروا الماضى، عندما تجاهلوا ما يجب أن يفكروا فيه، وفكروا فيما لا يستحق إجهاد العقل.



قوم.. بوس رجلها

يارب .. إبعدنى عن السياسة أو إبعدها عنى، لأنها تفقدنى روح المرح وتجعل منى كاتبا سمجا. ارزقنى بكل ما هو ظريف وطريف من الأفكار، واجعل منى مصباحا يضئ الطريق للناس،واتخذ منى أداة لك، تضحك لها الناس وليس عليها ، مصداقا لقولك (وهو الذى أضحك وأبكى - سورة النجم).. يا فرج الله يا كريم، أخيرا وجدت خبرا طريفا، هل تذكرون ذلك الرجل فى أسبانيا الذى كان يعطى دروسا فى كيفية ضرب النساء ويحدد فيها أنواع الخرزانات المطلوبة. لقد حكم عليه القاضى هناك بالسجن خمسة عشر شهرا قضاها المسكين بغير أن يرتفع صوت احتجاج واحد من الأمة العربية ، المهم أن الله قد فك أسره وأفرج عنه القاضى بشرط أن يقرأ كتبا عن حقوق الإنسان فى أوروبا بالإضافة للدستور الإسبانى،ربما بعد أن اكتشف أن الرجل المسكين لا يعرف عن أسبانيا سوى الديزل الأسبانى. ولأن كل شئ خارج حدودنا جاد تماما، لذلك من المتوقع أن تجرى له اختبارات يسمّع فيها ما حفظه فى مدرسة تحفيظ حقوق الإنسان وذلك للتأكد من أنه ليس مجرد إنسان يحمل أسفارا. اسمحوا لى،أن أختلف مع هذا الحكم ، ألف كتاب ليست صالحة لأن يؤمن الإنسان بشئ ، وخاصة

عندما يرغم على قراءتها، لابد أن (يشعر) بالحقيقة ، لابد أن يتضح له - بكل طرق الإثبات - أن أفكاره عن المرأة والضرب ليست صحيحة، لابد أن تضربه امراة، هذه هى المسألة باختصار. وإليكم بعض الأفكار العملية لتحقيق ذلك. أخونا يركب الأتوبيس فى طريقه إلى مقر عمله، الأتوبيس امتلأ تقريبا بالنساء العاملات، المقعد الوحيد الخالى كان بجوار سيدة بدينة، يحرص على ألا يلمسها، فى المحطة التالية تقوم السيدة لتنزل، يقف لكى يفسح لها الطريق، تلتصق به، تصرخ (باللغة الأسبانية طبعا): إيه اللى عملته ده يا راجل يامتخلف يا قليل الأدب.

ترفع كفها وتهوى بها على صدغه، ثم توجه له عدة لكمات، تنظر للركاب وتصيح: تصوروا المجرم ده عمل فىّ إيه وانا باعدى من قدامه..

الأتوبيس يتوقف، الرجل يصيح (اللغة ليست مهمة هنا، عربى إسبانى، إنجليزى.. ماشى) عدد من الراكبات يشتركن مع السيدة فى ضربه، واحدة منهن تصيح: هو انت كل يوم ياراجل انت ليك حادثة؟

فى قسم الشرطة، (بالصدفة) كان يوجد مترجم، اقسم الرجل بأغلظ الأيمانات بأنه لم يقترب منها، كل السيدات يصحن فى نفس واحد: كداب.. أمال حاتقول إيه..؟

الضابط متحضر ولا يريد مشاكل، يطلب عمل محضر صلح بينه وبين السيدة، وأن يعتذر لها: قوم بوس راسها.. بوس إيدها... بوس رجلها.. قوم.. ماهو ياتبوس رجلها ياإما أحولك على النيابة.

بعد لحظات تردد ينحنى ويقبل قدمها (أنا شخصيا لو مكانه كنت حاعمل كده، أمال اتسجن ؟) فى اليوم التالى ، يحرص على عدم ركوب الأتوبيس، يركب المترو، يقف بجوار الباب بعيدا عن

الركاب، سيدة نحيلة جدا تأتى وتقف إلى جواره استعدادا للنزول، يبتعد عنها، تنزل وقبل أن يتحرك المترو تقفز راكبة مرة أخرى وهى فى حالة هياج، تمسك بخناقه وهى تصرخ (برضه بالأسبانى) : إيه اللى عملته ده ؟ ما تروح تتعالج من الخصلة المهببة دى.

تلتفت للركاب: شفتوا عمل فىّ إيه؟

عدد من الركاب يصيحون فى نفس واحد: أيوه شفنا.. ومستعدين نيجى معاكى القسم نشهد.

السيدة تصيح: قسم ؟ هو أنا عندى وقت أضيعه فى الأقسام.. أنا باخد حقى بدراعى..

صوت يهمس بين الموجودين: يا نهار إسود.. ده وقع فى كارمن بتاعة الكاراتيه... لا هو قدها ولا قد جوزها مصارع التيران.

الفزع يستولى على الرجل، يصيح بكلمات غير مفهومة، غير أن أحد الركاب وهو أستاذ لغات شرقية قال فيما بعد أنه كان يتكلم عن دوره فى حضارة الأندلس . توقف المترو، السيدة تجذبه إلى الخارج، وتبدأ المباراة من طرف واحد، لا أحد يتدخل من الواقفين على المحطة، السيدة كارمن حاصلة على الحزام الإسود فى الكاراتيه، ولكن البقع الزرقاء التى ظهرت على وجه أخينا تدل على إنها حاصلة على الحزام الأزرق فقط. بعد لحظات ، يظهر شخص، يشق طريقه بين الناس صائحا : مين ده اللى بيضرب مراتى ده...؟ أنا كنت قاعد على القهوة وقالولى مراتك بتتضرب... عمل فيكى إيه يا حبيبتى.

ترد عليه فى غضب: انت بتهبّل بتقول إيه.. ده أنا اللى بأدبه... وانت إيه اللى قعدك على القهوة ياراجل انت ؟ انت مش قلت لى الصبح إن عندك تدريب مع تور جديد؟ هه.. قدامى .. قدامى..

السيدة تختفى هى وزوجها بعد أن أنهت المباراة بمقص حرامية

ترك صاحبنا على الأرض فى حالة يرثى لها. عاد إلى البيت وطلب أسبوع أجازة مرضى، نام على السرير وكل جزء فى جسمه يؤلمه، جرس الباب، ينظر فى العين السحرية، سيدة تقف أمام الباب، يقول بصوت مرتعش: مفيش ستات تدخل عندى.. أنا راجل محافظ..

السيدة ترد : أنا الدكتورة.. جايه أكشف عليك.

يصرخ فى هلع : لأ.. خفيت خلاص.



المروحة

استيقظ الرجل من النوم على صراخ زوجته وهى تجذبه بعنف وتشتمه شتائم بذيئة فقتلها ثم علق جثتها فى مروحة السقف. المشاكل الدائمة بين زوجته وأمه أفسدت حياته ونغصت عليه عيشته وتسببت مرتين فى فصله من عمله. وأخيرا جاءت اللحظة التى فقد فيها اعصابه وتحول إلى قاتل. فى لحظة، تمكنت الزوجة بعد مجهود شاق طويل من إخماد صوت الوعى عنده فانطلقت غريزة العدوان خارجة من أعماقه البعيدة بكل طاقتها لتنهى حياة الزوجة. ولكن لماذا علق جثتها فى المروحة؟ كانت إجابته غير مقنعة بالمرة و هى أنه فعل ذلك ليتأكد من أنها قد ماتت. بالتأكيد هناك ألف طريقة أخرى يتأكد بها الإنسان من أنه أجهز على ضحيته، فلماذا لجأ لهذا الفعل غير المنطقى وغير المفهوم؟

كل الأعمال التى تبدو غير منطقية، لها منطقها الخاص الذى يمكن النفاذ إليه والتعرف عليه. وكل الأفعال غير المفهومة، ستتضح لنا أسبابها عندما نتعرف على الأساس الذى استندت إليه.

نحن أمام حالة واضحة من حالات الضحوية(victimology) وهى الحالة التى تحاصر فيها الضحية قاتلها حصارا شاملا وعنيفا وتسد عليه كل المنافذ بحيث لا تترك له وسيلة للإفلات من

مصيره التعس وهو قتلها. الضحية هنا بالاشتراك مع الأم، عملتا بدأب وإصرار وقوة على إيصاله إلى هذه اللحظة عبر سنوات طويلة من الأذى والمتاعب إلى أن تجسد بداخله ما يسمى بالدافع الذى لا يقاوم للقتل. هو لم يخطط بعقل بارد لجريمته، ولم يقتل فى لحظة غضب فقد فيها أعصابه ليندم فى اللحظة التالية لجريمته، ومع ذلك فأنا أزعم أن فعل القتل كله إلى لحظة انتهائه من تعليق زوجته فى المروحة، تم فى غياب الوعى البشرى على النحو الذى نعرفه، وأن الفعل بكل تفاصيله تم بتوجيه اللاوعى ، تماما كما فى حالة الأحلام والكوابيس والمشى أثناء النوم ودليلى على ذلك هو حكاية المروحة التى سأحاول تقديم تفسير لها بعد قليل. سنلاحظ أنه قتلها عندما استيقظ على شتائمها، لم يكن الوعى عنده قد استيقظ بعد، اللاوعى فقط هو ما كان فى أنشط حالاته كما يحدث لنا جميعا عند النوم، فى لحظة عاد إلى الوراء عشرات آلاف السنين ، فتحول على الفور إلى مخلوق بدائى يتعرض لعدوان من شخص آخر وذلك قبل أن يعرف الإنسان مايسمى بالمشاكل و يخترع الطرق المختلفة لحلها، عندما كانت الطريقة الوحيدة للدفاع عن النفس، هى القضاء على الآخر.

من الطبيعى أن اللاوعى فى نشاطه سيلجأ إلى أسلوبه المعروف فى الإخراج ، أى إلى الرموز، فيا ترى، ما هو أول رمز يتراءى لنا عند رؤية مروحة؟ .. الدوران، بمعنى أدق الدوخان. لقد دوخته هذه الزوجة لأعوام طويلة، وأخيرا جاءت اللحظة التى يقوم فيها بتدويخها. هناك مصطلحات شعبية عديدة تقرن الدوران بالدوخة. منها ـ دوّرت على الشئ الفلانى فلم أجده، دخت، دخت السبع دوخات ـ دوّخوه ، كعب داير. وفى أقصى حالات الضياع نقول، دوخوه، خلوه يلف حوالين نفسه. وهناك مصطلح طريف ـ دوخينى يا ليمونة ـ وهو يستخدم فى حالة الاستنكار، أى عندما

يجـهـدك شـخص بحـثـا عن شئ بينمـا كـان المفـتـرض أن يساعدك،فالمعروف أن المصرى يمص نصف ليمونة عند إحساسه بالغثيان الذى هو نفسه إحساس بالدوخة. الاستنكار هنا يأتى من أن الدواء الموصوف للدوخة أصبح سببا فيها. وفى العربية الفصحى نستخدم كلمة المراوحة فى المكان بمعنى العجز عن الحركة فى أى اتجاه وهو أيضا معنى من معانى الحصار.

فى الصراع الطويل الدائر بين زوجته وأمه، كان دائخا يدور حول نفسه، بوعى ضعيف عاجز عن الحسم، وبلا وعى قوى مكبوت يحلم بتلك اللحظة التى يتمكن فيها من تدويخ الزوجة والأم.

أى أن فعل القتل نفسه لم يكن الهدف النهائى للاوعى، بل الدوران فى المروحة. هكذا علق جثتها فى المروحة لتدوخ، وذهب بأولاده إلى واحد من أصدقائه ليوصلهم لأمه لتدوخ بتربيتهم هى الأخرى.الآن فقط شعر اللاوعى بالارتياح فانسحب عائدا إلى مقر إقامته البعيد فى الأعماق المظلمة للعقل البشرى، مخليا المكان مرة أخرى للوعى الذى بدأ يتبين فى فزع ما حدث. بهذا الوعى العاجز المسكين، عاد الزوج إلى منزله ليبكى ثم خرج ليسلم نفسه للشرطة.

سنلاحظ فى اعترافات الجناة من هذا النوع، إنهم يشعرون بارتياح شديد لما فعلوه، وبعضهم يعلن أنه على استعداد لقتل ضحيته مرة أخرى إذا عادت للحياة. ولعل أشهر واقعة فى مصر، هى حادث سيدة الإسكندرية التى ذبحت زوجها، وقطعته ثم وضعت القطع فى أكياس وزعتها على أحياء المدينة. فى اعترافاتها قالت أنها شعرت بعد قتله بارتياح لم تعرفه من قبل. لو أنك عرفت ما فعله بها زوجها لشاركتها فى تقطيعه بكل سرور. كان الرجل على استعداد لفعل أى شئ بأى مخلوق، كان يقوم بتزوير أى شئ، ويلفق قضايا لضحاياه ويرسلهم إلى السجن، نهب فلوسها وزور توكيلا

استـولى به على الفيـلا التى تمتلكهـا ثم بدأ يهـددها بتطليـقـهـا وإلقـائهـا فى الشـارع هـى وأولادها من زوجين سـابقين، مـاذا تتـوقع منها، أن تشكوه للأمم المتحدة؟

كل حالات انعدام الضمير، وقلة الحياء، وانعدام التهذيب،ليست أكثر من ساتر يخفى رغبة قوية عند صاحبها فى إنه يروح فى داهية، هذا هو ما نسميه البلطجة.



الضحك والجنس والسياسة

أعظم من قدم الكوميديا فى طول التاريخ وعرضه، هو أريستفانيس، الكاتب المسرحى الإغريقى (القرن الخامس قبل الميلاد) هو أول من قدم ثنائية الجنس والسياسة فى عمل فنى جعل منه قاعدة لإطلاق صواريخه الفكاهية، وأيضا كأساس متين لفكرته الأساسية، وهى رفض الحرب وتحريض الناس على المضى صوب السلام. الحرب الدائرة بين اسبرطة وأثينا لأكثر من أربعين عاما، ألهمته فكرة مسرحيته «ليزيستراتا» وهو إسم المسرحية وإسم بطلتها .

تحت ضغط الحرب التى يبدو أن لا نهاية لها، قررت هذه السيدة عمل تنظيم سياسى نسائى يتخذ من الجنس، بمعنى أدق، عدم ممارسته، وسيلة للضغط على المتحاربين من الفريقين لكى يتوقفوا عن القتال، لن تنام سيدة فى الفراش مع زوجها إلا بعد الوصول إلى السلام ، شرحت الفكرة لكل زميلاتها من الزوجات فى أثينا فاقتنعن بها وانضممن إليها، واعتصمن فى معبد الآلهة أثينا واتخذن قرارا بالامتناع عن معاشرة أزواجهن بعد عودتهم من ساحة القتال. مهما كانت الإغراءات أو الضغوطات أو التوسلات أو التهديدات، إلا بعد الوصول إلى السلام. هذه هى الفكرة

الأساسية (التيمة) للمسرحية، من يرد أفكاراً، فسيجد أمامه وليمة من الأفكاريتناول منها ما يريد ، أما المتفرجون الذين جاءوا طلبا للضحك والاستمتاع بالفرجة، فياله من منجم للفكاهة، ياله من مهرجان للضحك الإنسانى الجميل.

وضوح الفكرة وصلابتها، أشبه بالقاعدة الخرسانية، كل مشهد وكل موقف وكل جملة حوار تقيمها عليها، لابد أن تفجر ضحكا صافيا يخلو من أى افتعال ، وذلك عندما يجد المتفرج نفسه وجها لوجه أمام الضعف الإنسانى بكل مايحدثه من تداعيات مضحكة. وبعد العديد من المحاولات اليائسة الفاشلة من الأزواج لإثنائهن عن عزمهن، يكتشفون أن الحكاية جد لا هزل فيه، الطريق إلى الفراش لابد أن يمر بالسلام. وتبدأ جلسات التفاوض، وتتفجر الخلافات الحادة بينهم، وتتناثر العبارات الخشنة، ولكنك لا تعرف بالضبط هل هم يتكلمون عن أجزاء من الأرض المتنازع عليها، أم على أجزاء من الجسم الأنثوى، حتى الأفعال، يختلط فيها العسكرى ، بالجنسى. وكل قضية تبدو جادة ظاهريا، سيرى المتفرج أن الهدف من ورائها، هو الرغبة فى الذهاب سريعا إلى الفراش.

وهناك فى معسكر السيدات للسلام، سيتفجر الضحك أيضا من الضعف الإنسانى .فهناك مثلا الزوجة التى تضعف، وتبيع القضية، وتحاول التسلل تحت جنح الظلام لتقابل زوجها، فينكشف أمرها ويقبض عليها، وتتهم بالخيانة، لك أن تتصور الشابة المسكينة ، وقد أحاط بها عدد من السيدات الشرسات، وهى تصيح: ماحصلش والله..أنا كنت خارجة أشترى حاجة وراجعة تانى...

- إخرسى يامجرمة... ليك عين تتكلمى... إحنا عارفينك ومراقبينك..وشفناكى وانتى لازقة فيه تحت تمثال الإله باخوس... ده احنا لو كنا سبناكى خمس دقايق، كان حصل اللى حصل،

وضيعت لنا حركة السلام.

أبدا والله...أنا كنت باسلم عليه، وباقول له حاجة ...أصله كان طلب منى أبعت السيف بتاعه عند السنّان، ...كنت عاوزه أديله الوصل بتاعه عشان يروح يستلمه.

- أى سيف فيهم ياخاينة يا مجرمة، أمال كان بيحارب بإيه، بالاستبن ؟ ...مش عارفة تصمدى شوية عشان السلام...وحياة أبويا، السلام خسارة فيكى وفى أهلك ...

الكوميديا بكل أنواعها فن جاد يصنعه المهمومون بقضايا الإنسانية وليس الظرفاء خفيفى الدم، فالظرفاء ينتجون السخرية، وهى فى أحيان كثيرة، تكون مجرد طاقة عدوان موجهة ضد الآخرين. وكوميديا «الفارس» حادة الزوايا ذات قدرة هائلة على التركيز والتلخيص، والضحك فيها ليس هدفا فى حد ذاته، ولكنه نتاج جانبى لها، وهدفها الأساسى هو اكتشاف الخطأ فى كل مايبدو صحيحا، والتعرف على جوانب الشر فى الأفكار التى تبدو خيّرة، واكتشاف القبح فى السلوك الإنسانى، وإظهاره للناس فى وضح النهار.

الرغبة فى اكتشاف القبح والتحذير منه، وإغراء الناس على اتخاذ موقف تجاهه، هو ما يعذب صناع الكوميديا، من المستحيل عليك أن تسعى إلى اكتشاف القبح، بغير أن يكون، مؤلما لك أشد الألم، وفى غياب هذا الألم، لن يفلح صناع الكوميديا إلا فى تقديم الهلس والهجص والبلاهة وهى بعيدة عن «الفارس» بعد السماء عن الأرض. وبذلك تتحول الكوميديا على أيديهم من قوة مطاردة للقبح إلى قلعة حصينة له على هيئة فيلم أو مسرحية.هكذا تنصرف الناس عن العروض ، و تفشل الأعمال الفنية التى قصد بها أن تكون فكاهية، ويضيع ممثلون ممتازون نتيجة للخلط بين طبيعة الضحك فى جلسات الانسجام، وبين تركيبته فى الفن. هل كان من

الممكن ظهور واستمرار كوميديانات مصر العظماء طوال القرن العشرين فى غياب نصوص جادة وجيدة؟

إننى أشعر بقلق كبير لندرة عدد كتاب الكوميديا ، لأن ذلك يعنى قلة عدد هؤلاء الذين قرروا التصدى للقبح ومحاربته، وأعزى نفسى أحيانا بأن أتصور أن هناك جيلا جديدا فى مصر يحاول دخول الساحة بإصرار غير أن جيلا آخر من المسجلين خطر كوميديا، يسد عليه الطريق .

سمير خفاجه، صاحب ومديرفرقة المتحدين، شاهد عرضا مسرحيا (كوميديا) قال لى عنه :الممثلين هايلين...كاست كويس قوى.. بعد العرض سألتهم، الكلام اللى انتم بتقولوه فى المسرحية.. فيه حد كتبه؟

كما قال لى الدكتور سمير سرحان تعليقا على عرض مسرحى تكلف الملايين: الملابس هايلة... الديكورات فخمة...الموسيقى حلوة قوى....الممثلين عاليين جدا..بس الظاهر نسيوا يكتبوا النص .

هل تريدون للكوميديا فى مصر أن تلقى مصير الأغانى المسلوقة التى يستهلكها البشر بأسرع مما يستهلكون مناديل الكلينكس؟ إذا كنتم لا تريدون لها هذا المصير، فكونوا جادين .



شمهورش يقابل الباشا

الدكتور يونان لبيب رزق مؤرخ مبدع ومثقف هامس يتسلل برقة إلى قلوب قرائه، إنه يدعو ضيوفه إلى مائدة التاريخ ليس فقط لكى تزداد معارفهم ، بل لفهم لحظات الحاضر على ضوء أحداث الماضى ، وهو يحرص مثل ول ديورانت المؤرخ الأمريكى العظيم على أن يكون ممتعا وهو ممتع بالفعل. ولقد حكى لنا بعض حوادث الدجل التى نشرتها جريدة الأهرام فى الثلاثينات، كما حكى قصة دجالة فى عهد محمد على الكبير، أقنعت الناس أنها صديقة لشمهورش كبير الجن والعفاريت وأنها قادرة على استحضاره «فالتف الناس حولها وأصبح الضباط والرؤساء من مريديها ، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن ، ولما استفحل أمرها وخشى محمد على خطرها، استدعاها إلى قصره وأظهر لها رغبته فى الحديث مع جنيها» تعال نسترجع المشهد.. قاعة فى القصر، عدد كبير من الحاشية ، ينطلق البخور وتنطفئ أنوار المشاعل، تعاويذ وكلمات غير مفهومة، أصوات فحيح وهسيس وعواء ريح ثم صوت الجن آت بالطبع من جوف المرأة : شمهورش يقرئك السلام ياولى النعم... والله عندما استدعتنى هذه السيدة المباركة، تركت ما فى يدى فى الحبشة وجئت على الفور.. مسافة السكة.. طلباتك

مجابة ياباشا ... ولكن لكى تحل البركة عليك وعلى أهلك وعلى أهل مصر ، سأمد إليك يدى الآن لكى تطبع عليها قبلة من شفتيك الكريمتين..

غير أن الباشا لم يقبل يد شمهورش، بل أمسك بها بقوة وصاح : إشعلوا الشموع والمشاعل..

وعندما أضاء المكان ، رأى الجميع أنها ـ أى اليد ـ كانت يد الدجالة التى (حينما رأت انكشاف حيلتها توسلت إليه أن يعفو عنها) ولكن الباشا أمر بإغراقها فى النيل وسط احتجاجات كبار المسئولين فى الحاشية الذين استاءوا من ذلك ورأوا فيه ز خروجا على الدين وتحقيرا لمبادئه (!؟)» غير أن الباشا قال لهم: إذا كان لها حقا أصدقاء من الجن فسينقذونها حتما من الغرق.. وإذا كانت مجرد، دجالة.. فستلقى جزاءها العادل..

هى حكاية مسلية كما ترى، ولكن كل حكايات الدجل المسلية تدفع عقلى للدوران، لماذا تزيدت وزايدت الدجالة إلى الحد الذى تطلب فيه من الباشا تقبيل يد الجن وهو ما أدى لكشفها؟ ولماذا استاءت الحاشية عندما اتضح أمامهم بالدليل القاطع أنها دجالة ؟ وكيف رأوا فى قرار الباشا (خروجا على الدين وتحقيرا لمبادئه) ما صلة الدين بالدجل والدجالين ؟

الواقع أن الدجال لا يسعى فقط لخديعة السلطة السياسية أو مصادقتها على ما يمارسه من خداع، بل هو يسعى لأن تنضوى السلطة تحت لوائه، وهو ماسيضمنه حتما عندما تقبل يده دلالة على التسليم الكامل، هو يريد أن تكون السلطة بكل ماتملكه من قوة تحته وأن يكون هو فوقها، هو لا يريد ممارسة السلطة لعجزه عن تحمل أعبائها ، ولكنه يريد أن يمارسها الآخرون لحسابه، المطلوب منه فقط أن يمنحهم البركة ، ولكنها أغفلت شيئا واحدا هو أن الباشا كان شخصا مختلفا عن مريديها.

الدجل ليس مجاله عالم الجن والعفاريت والغيبيات فقط ، الدجل يعرف طريقه إلى كل مهنة ، بمعنى أدق ، كل مهنة تعرف طريقها إليه. هناك الصنايعى الدجال، والكاتب الدجال والمثقف الدجال والفنان الدجال والسياسى الدجال. و هو فى أى مجال أو مهنة، يخشى الكشف عن حقيقة أى دجال فى مجال آخر، لأن ذلك يذكره على نحو غريزى باحتمال انكشافه هو. الكشف عن الحقيقة فى أى مجال، هو العدو الحقيقى لكل الدجالين فى بقية المجالات.هذا هو بالضبط ما اشعر حاشية محمد على بالرعب من قرار الباشا بإلقاء المرأة فى النيل.وبالمناسبة، هذه العقوبة كانت معروفة فى مصر فى ذلك الوقت، بل ومارسها السيد نابليون أيضا سرا، جوال يوضع فيه الزبون بعد تقييد يديه وقدميه بالإضافة لعدد من الأحجار الثقيلة. الغريب فى الأمر أن هذا العقاب الجهنمى كان يحاط بطقوس شعبية احتفالية تذكرك بحكاية عروس النيل التى لم يقطع أحد بصحتها حتى الآن، هذا هو ما وصفه إدوارد لين فى كتابه «العبقرى، المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم ١٨٨٥». فقد شاهد سيدة بكامل زينتها تركب حمارا بوضع معكوس وخلفها فرقة موسيقية وجمع غفير من البشر يمشون خلفها صامتين، كانت المرأة هادئة ومتمالكة لنفسها وهم فى طريقهم لإلقائها فى النيل بتهمة الردة بعد أن استتابوها ثلاثا ورفضت التوبة.

نستطيع التأكيد، أن الدجل فى مجال الغيبيات يدور وجودا وعدما ، قوة وضعفا مع الدجل فى مجال الواقع العملى. وأخطر الدجالين هو صاحب الكاريزما، لقدرته على إقناع المحبطين المحيطين به -خصوصا فى سن الشباب وهى مرحلة البحث عن الذات واكتشاف قيم الحياة الحقيقية - بأن الحياة بطبيعتها أساسها الدجل، وأن النجاح فيها يتطلب قدرا مناسبا منه، وأن

الترقى فى مدارجها مرهون بالسير فى طريق الدجل وحده، وبذلك يتم تحويلهم إلى جماعة متماسكة تتخذ من الدجل فلسفة وطريقة ومثلا أعلى،ومن ثم يتفرغون للدفاع عن أى كذبة وأى كذاب من أى نوع فى أى مكان وزمان. ولقد كان من الممكن التسامح مع كل ذلك باعتباره طقسا شعبيا مريحا للناس، غير أن ـ للأسف ـ مساحات الدجل تستقطع من مساحات الواقع العملى، بمعنى أن كل فدان يزرع دجلا، مستقطع من أرض كان المفروض زراعتها قمحا.. كل مساحة نشر يحصل عليها دجال، مستقطعة حتما من الشيخ محمد عبده واحمد لطفى السيد واحمد عبد المعطى حجازى. عرفت دلوقت الجماعة زعلوا ليه من الباشا لما كشف الولية ؟ أوعى تكون زعلت انت كمان.



مصر غنية بالمعجزات

إن أسوأ مافى الحياة هو أن تجهل إنك غنى، وأن لديك ما تقدمه للآخرين وتحصل فى مقابله على مبالغ فلكية بالعملة الصعبة تسدد بها ديونك وتعيد الاتزان إلى ميزانك وميزانيتك، وتكون النتيجة أن تخرج من حفرة إلى دحديرة. سأحدثكم اليوم عن مصدر عظيم للثروة أهملناه طويلا وهو المعجزات. المعجزات التى تحدث فى مصر فقط، لست أتكلم عن الخرافات، أو تلك الخوارق التى أثبت العلم عدم صحتها، أنا أتكلم عن معجزات حقيقية مؤكدة عجز العلم عن تفسيرها. فمنذ سنوات قليلة ظهرت جاموسة فى إحدى قرى دمنهور تدر لبنا يشفى الناس من مرض السكر والضغط وعدة أمراض أخرى. وكتبت الصحف عن هذه الجاموسة، وهبط عشرات ألوف المرضى من المصريين والإخوة العرب على القرية يحاولون الحصول على لحسة من هذا اللبن الشافى. وذهب الصحفيون مصريين وأجانب وكاميرات التليفزيون من كل وكالات الأنباء فى العالم إلى عيادة الجاموسة التى كانت مجرد حظيرة من قبل، واجروا أحاديث مع صاحبها ومع بعض المرضى الذين تم شفاؤهم على أيديها، أقصد على ضروعها.

ولكن، ككل المشاريع الناجحة فى مصر، كان لابد أن يتصدى لها

أعداء النجاح، بالاشتراك بالطبع مع شركات الأدوية الأجنبية ومافيا المستوردين، وقتها ظهرت تقارير مخابراتية عالمية ترجح أن كل جاموس هذه القرية يمكن اعتباره أسلحة علاج شامل، وصرح الدكتور البروفيسير فوستوك فوستوك أنه لابد من إغلاق هذا الباب فورا، حتى لو تطلب الأمر حصار هذه القرية والقضاء على جاموسها كله، ووصل هذا التهديد إلى أسماع سكان القرية فقرروا تنظيم صفوفهم والدفاع عن جاموسهم مهما كلفهم الأمر من تضحيات، ولكن يبدو أن الجناح الموالى للغرب داخل الحكومة، سارع بتوجيه ضربة مجهضة للمشروع وللمعجزة، فقد أرسلوا بعثة من معامل وزارة الصحة قامت بالحصول على عينة من لبن الجاموسة وحللوها واكتشفوا أنه لبن عادى، دون أن يتساءل واحد من جهابذتهم، كيف يكون لبنا عاديا وقد ثبت من أفواه المرضى أنفسهم أنه أشفاهم؟

معجزة أخرى اهتمت بها الصحافة وقتا طويلا، قطة أخرى فى قرية أخرى، تتكلم وتقول ماما.. وبابا.. وكلمات من هذا القبيل، وذهب إليها طارق علام بكاميراته، وتكلمت القطة فعلا ، احتضنتها صاحبتها، صاحبة المعجزة، وضعتها على صدرها وقربتها من فمها وأحاطت رأسها بكفها على سبيل الحنان ولمآرب أخرى، وحدثت المعجزة أمام الكاميرات، ولو أن الأستاذ طارق كان مايزال يتمتع بخبرته البوليسية لأدرك على الفور أن شفتى الفتاة مفتوحتان، وأنها هى التى تصدر صوت ماما وبابا وأيوة ولأ..

كل من يشك فى هذه المعجزة، سيحرص تلقائيا على التركيز على شفتى القطة، وفى الوقت التى ترغمها فيه بأصابعها على فتح فمها، كانت تصدر الصوت من بطنها، إنها من أقدم الحيل فى الموالد المصرية، الرجل الذى يمسك بعروسة جوانتى ، هى الخواجة

شيكو بيكو ويدور بينهما حوار حقيقى يتكلم فيه الرجل من بطنه فى الوقت الذى يحرك فيه شفتى العروسة وبقية جسمها، فيظهر للمتفرج بالفعل أن عروسة شيكو بيكوتتكلم.

فى ذلك الوقت كنت أكتب فى مجلة كاريكاتير، وفى مهمة خيالية ذهبت إلى القرية بصحبة عدد كبير من المراسلين الأجانب، واكتشفنا أن الكلمة الوحيدة التى تجيدها القطة هى ناوnow أذكر أن المراسلين وجهوا إليها عدة أسئلة من نوع: متى فى تصورك يجب أن يحدث التحول إلى الحرية السياسية والاقتصادية؟ متى يجب أن يكف الإعلام فى مصر عن الاهتمام بالمعجزات فى الريف المصرى؟ متى يجب أن ندفع الناس للتفكير العلمى الضرورى لحل مشاكلهم ؟ وكانت إجابة القطة على كل هذه الأسئلة هى: ناو..now.

ومرة أخرى يتدخل أعداء المعجزات ويخفون القطة وصاحبتها دون أن يفطنوا إلى ما كان يمكن أن تحققه هذه القطة فى صراعنا الطويل مع الغرب، كان من الممكن بقدر يسير من التدريب الصارم، أن نقوم بتعليم هذه القطة عددا كبيرا من الكلمات والتعابير الحياتية والسياسية ثم نرسلها إلى الأمم المتحدة وبقية المحافل الدولية، لتشرح قضايانا وتدافع عنها، لقد كان من الممكن لهذه القطة أن تتحدى جماعة الصقور فى الحكومة الأمريكية وتدخل معهم فى مناظرات علنية تحت شعار.. حتى الحيوانات اتكلمت من سوء أفعالكم.

آه لوكنا تنبهنا لذلك، ولكن التاريخ للأسف لا يعرف كلمة لو، كما أنه لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، لذلك سأكتفى فقط بالحزن على مافات ، ثم أنتقل من ذلك إلى التنبيه- بأقوى الكلمات- إلى معجزة جديدة حدثت هذه الأيام، طالبا من الجميع

التعامل معها بحكمة. فقد طيرت وكالة أنباء الشرق الأوسط الرسمية الحكومية نبأ قالت فيه (ولدت أرنبة يملكها أحد المواطنين بقرية الكوم الأحمر بمحافظة بنى سويف خمسة أرانب بينها فيل فى حجم الأرنب له زلومة وحوافر الفيل. إلا أن الأرنبة لم ترضعه فمات وتعد هذه الحالة نادرة من نوعها لم تحدث من قبل) تعالوا نستفيد من هذه المعجزة استفادة عظمى، أما الأخوة الشكاكون فإننى أقول لهم: هل تتصورون للحظة واحدة أن وكالات الأنباء تعطى لموظفيها مرتبات مقابل أن يتخيلوا أو يكذبوا أو حتى يبالغوا؟ هذا الخبر صحيح مائة فى المائة، ولكن يبدو أن الوقت لم يتسع أمام كاتب الخبر لعمل تقرير شامل يشرح فيه أبعاد هذه المعجزة. ولما كنت أؤمن بأن هناك سببا علميا يقبله العقل وراء أية معجزة، لذلك ذهبت بنفسى إلى قرية الكوم الأحمر ليس لكى أتأكد أن أرنبة ولدت فيلا، ولكن للإجابة على السؤالين المهمين: لماذا.. وكيف ولدت الأرنبة فيلا؟

الإجابة عن هذين السؤالين هى التى ستضئ لنا الطريق للأستفادة من المعجزة حتى بالرغم من موت الفيل كما يقول الخبر. فى قرية الكوم الأحمر، اكتشفت السر فى دقائق بعد حوار سريع مع السيدة المربية للأرانب. سألتها: حدثينى عن هذه الأرنبة بالتحديد، هل كانت تقضى وقتا طويلا خارج البيت؟ هل - ولا مؤاخذة - كانت لها علاقة بفيل من أفيال الكوم الأحمر؟

أجابت: لست أربى هذه الأرانب عندى، فأنا عاجزة عن إطعامها، زوجى كان يأخذها معه إلى القاهرة حيث يعمل، هناك أكل وفير...

: هناك أين؟

- فى حديقة الحيوان، هو يعمل هناك..

بالمزيد من التحريات، اتضحت الحقيقة، الرجل يعمل حارسا لبيت الفيل، وطبعا كمية البرسيم المصروفة له كبيرة للغاية، فاهتدى لهذه الفكرة ، أن يقوم بتربية الأرانب مع الفيل، ولعله كان يفكر أيضا ، فى تدريب الأرانب على القيام بحركة تعظيم سلام مثل الفيل فتلتقط البقشيش من الزبون بفمها، الشئ الوحيد الذى لم يفطن إليه والذى تسبب فى حدوث هذه المعجزة، هو أنه لم يكن حريصا أثناء الليل على فصل الأرانب عن الفيل، فحدث ماحدث.

سؤال: لماذا امتنعت الأم عن إرضاع هذا الفيل الصغير،فهو إبنها وضناها فى نهاية الأمر؟

الإجابة: فى المملكة الحيوانية، من الصعب على الأم وخاصة عندما تكون أرنبة، إرضاع ابن الخطيئة.

لقد كان من الممكن إنقاذ هذا الفيل الصغير والعناية به لكى نفاجئ العالم كله بهذه المعجزة، ولكن الرجل الغبى وزوجته اللامبالية، تركاه يموت جوعا. كان من الممكن أن يأخذه عقب ولادته على الفور إلى حديقة الحيوان، حتى لو لم يجد أما مرضعة بين الفيلة، فمن الممكن أن ترضعه ذئبة أو قردة أو أى حيوان آخر مازال قلبه ينبض بالإنسانية فى هذا العصر المتوحش.

بعد أربعين عاما أو تزيد من الاشتراكية العلمية، تحصنت الخرافة بالحداثة وأدوات العصر، ماكان يحكيه لك قروى بسيط على الجسر من أن أرنبة ولدت فيلا أو جملا أو جاموسة فى القرية المجاورة، ستحكيه لك الآن وكالة أنباء رسمية حكومية تستخدم أكثر أجهزة العصر تعقيدا لتضمن بها وصول الخبر الخرافة إلى كل أرجاء المعمورة والمخروبة أيضا. والعلاج بالخرافة الذى كان يقوم به فيما مضى أشخاص لا مهنة لهم يجوسون داخل القرى فى الموالد، أصبح يقوم به طبيب مؤهل مثل ذلك الذى يعالج

فيروس س بالحمامة، أى أن الخرافة حصنت نفسها الآن بالعلم . من منا يجرؤ على اتهام طبيب حاصل على بكالوريوس فى الطب، بالتخريف؟

فى هذا المثال الأخير تتضح أعلى درجات الكفر بالعلم، ولكن هل هو كفر بالعلم فقط؟

الواقع أنه يمثل درجة عالية من العدوان مختلطة برغبات جنسية قوية مكبوتة، لماذا اختار الحمامة كأداة لهذه اللعبة؟

الواقع إن الحمامة من أقدم الرموز الجنسية فى اللاوعى الجمعى والتراث الشعبى، ستجد ذلك فى عدد كبير من أغانى الفلاحين الشعبية، كما ستكون هذه الكلمة (الحمامة) هى أول ما يعرفه الطفل من أمه عندما تشير إلى عضو الذكورة منه .

الخرافة عدوان، غير أن الناس ستتعامل معها بوصفها ظاهرة طبيعية فى حالة واحدة فقط ، هى أن تكون محاطة بمناخ عدوانى ، وهندسة البشر من أعلى ، أى الشمولية فى الحكم توفر هذا المناخ الذى يعتدى فيه الجميع على الجميع . هناك من سيعتدى عليك بمقالة بلهاء، هناك من سيطعنك بفيلم عبيط ،هناك من سيسلط عليك تصريحات سياسية خرافية عن مشاريع وهمية وفرص عمل مستحيلة، هناك من سيعالج أزماتك بحمامة سياسية أو اقتصادية يضعها على قلبك فتمتص منه الألام والأوجاع وتحل كل مشاكلك ، ليس لأنهم أشرار، بل لأن الأفكار التى تحتم السيطرة على كل شئ من أعلى، من المستحيل فرضها على الناس إلا بالأكاذيب والعدوان .

ممارسة الخرافة وخصوصا من شخص متعلم،هو عدوان صريح يشكل جريمة، غير أن المجتمع لن يحاسب الصحافة التى كتبت عن القطة الناطقة، أو البقرة التى يشفى لبنها الناس، ولا الطبيب الذى

يقتل الحمامة على جسم المريض العارى، وذلك لأن المناخ العدوانى ضبابى غائم الملامح، والعيشة فيه أشبه بقيادة سيارة فى الشبورة، وسط الشبورة لن تشعر بخطورة هؤلاء، لن ترى بوضوح أنهم ارتكبوا جرائم، لأنها من النوع الذى تخفيه الشبورة، أصحاب الجرائم الصريحة فقط التى تتحدى الشبورة بوضوحها، مثل القتل والسرقات الكبرى،هم فقط من سيعاقبهم المجتمع.

فى هذا المناخ الاشتراكى بقدر ماهو رأسمالى، لابد أن يتحول السواد الأعظم من الناس إلى نصابين ويكون الاختلاف بينهم فى الدرجة وليس فى النوع. من المستحيل أن يمر اليوم بغير أن تكذب على الآخرين أو يكذبوا عليك، من المستحيل أن تصل إلى آخر النهار بغير أن ينصب عليك أحد، أو تنصب أنت على أحد.

الحكم الاشتراكى والحكم الدينى تحكمهما آليات عقلية واحدة، هذا هو بالضبط ما وجدناه فى الحكم الدينى، درجة نفاق عالية فى بلد عربى شقيق انتهت بدرجة أعلى من المتفجرات والتفجيرات . لابد أنك سمعت عن (بام) تلك القرية الإيرانية التعسة التى ضربها زلزال مروع فتك بها، لقد سارع العالم كله إلى نجدتها، وحرصت مصر على إقامة جسر جوى بينها وبين طهران لإغاثة الناس هناك ، وبعد أن انتهت أعمال الإغاثة، وانعدم الأمل فى وجود أحياء، وبدأ المغيثون يعودون إلى بلادهم، بعد ذلك كله، هبط القرية١٥٠٠ واعظ ، نعم الف وخمسمائة واعظ جاءوا من مدينة قم ليعظوا الناس ويقنعوهم بأن ما حدث كان ابتلاء من الله وليس عقابا. أنا شخصيا أرى أنه مجرد زلزال فتك بقرية مبنية من الطوب اللبن.

آه... لو أن كلا منهم وفر على نفسه عناء السفر وأرسل لهم بطانية واحدة أو جوال أرز أو عدس .. ماعلينا، حسبى الله ونعم

الوكيل . وعاظ الاشتراكية سيعظونك بأن جيلك البطل سيضحى بنفسه ويعيش أشد الحيوات تعاسة، من أجل جيل قادم سيجنى ثمار الاشتراكية، تلك الثمار التى لن يراها أحد .

وفى حكم الملالى، سيقول لك الواعظ: ستعيش عيشة تعسة..سيفتك بك الفقر والزلازل... لن تجد بطانية تقيك من البرد ، ولكنك لحسن حظك- ستجد موعظة حسنة، ١٥٠٠ واعظ جاءوا من أجلك ليعظوك ويخففوا عنك ما تشعر به من ألم وضياع...ولكن تأكد أن ثوابك عند الله عظيم...ومصيرك حتما هو الجنة...هذا ما جئنا نؤكده لك...وأمر آخر لتكون على بينة من أمرك...لقد انتظرنا إلى أن انتهت الزيطة بتاعة الإنقاذ.وجينا عشان نعرف حضرتك إنك بتاعنا...جينا نكبس على أنفاسك... ولا زلازل الأرض كلها، حا تخليك تفلت من مواعظنا .



ذئاب وغزلان

في أربعينات القرن الماضي عرفت الحلقات الأجنبية المسلسلة في السينما قبل أن أشاهدها في التليفزيون في الستينات، دور السينما في الأقاليم كانت تعرضها في بداية برنامجها الذي يضم فيلمين، واحدا أجنبيا وآخر عربيا، كل حلقة كانت تنتهي بكارثة للبطل كأن يقع مثلا من طائرة تطير على ارتفاع شاهق، وأظل أسبوعا كاملا أعاني من القلق على مصيره إلى أن يأتي يوم الاثنين وهو موعد تغيير البروجرام ، أنا واثق أن البطل سينجو لأنه بطل ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال الذي كان ينغص عليّ عيشتي طوال الأسبوع . الحمد لله، لقد سقط البطل على كومة كبيرة من القش ونهض على الفور وهو ينفض التبن عن ملابسه ليواصل صراعه مع رئيس العصابة الشرير. في إحدى الحلقات تم استدراج البطل إلى كابينة أسانسير أغلقت عليه، ثم بدأت المياه تملأ الكابينة قادمة من الأرض والسقف أيضا، ليس هذا فقط ، أرضية الكابينة أخذت تصعد إلى أعلى ، كما أخذ السقف ينزل إلى أسفل ، أي أن البطل سيموت ـ قطعا ـ غرقا وفعصا ، وحتى الآن لم أعرف كيف أنقذ، لم أشاهد الحلقة الثانية ، في الغالب كانت تمر بي أزمة سيولة أعجزتني عن توفير الخمسة

وعشرين مليما ثمن التذكرة.

وبعد دخول التليفزيون إلى مصر فى بداية الستينات بدأت فى الاستمتاع بالمسلسلات الأجنبية، لا أذهب إليها ولكنها تأتينى فى بيتى ، عدد كبير من هذه المسلسلات كان موضوعها الأساسى ، أن شخصا شريرا عبقريا ثريا إلى أبعد حد، يخطط لدمار العالم، غير أن بطل الحلقات كان يتصدى له فى شجاعة وإصرار، وفى نهاية كل حلقة كان يتمكن من إفشال مخططاته التى لا تنتهى. ومن هؤلاء الأوغاد الأشرار، وغد ظريف اسمه الدكتور شوبرت، كان يقيم قاعدته فى قاع المحيط ، هو عالم وهو شرير وهو ذواقة أيضا يحب الأطعمة البحرية ويصنع منها أنواعا وأصنافا لذيذة ،وفى كل مرة يتمكن فيها البطل من القضاء على مخططاته، كان يبدأ على الفور فى محاولته التالية، لست أذكر ماحدث للدكتور شوبرت، فى الغالب تمكن فى غفلة من البطل ، من تدمير العالم، فهذا العالم الذى نعيشه الآن يمر بحالة دمار لا تفسير لها غير أن الدكتور شوبرت نجح فى تحقيق حلمه الكبير.

ثم مالبثت هذه المسلسلات أن انتقلت بأفكارها إلى السينما بإمكانياتها التى لا تحدها حدود ، هناك على وجه الأرض أو فى أعماقها ، شخص ما أو جماعة ما أو دولة ما تعمل على تدمير العالم ، شاهدت عشرات الأفلام كانت هذه هى فكرتها الأساسية آخرها كان حرب الاستقلال، هناك مخلوقات جاءت من الفضاء الخارجى للقضاء على الحضارة الأمريكية وعلى بقية الحضارات، وللأسف فشلت أمريكا بكل ما تملكه من أسلحة دمار شامل وكامل وعادل من التصدى لهذه المخلوقات ، غير أن ربك ستر واكتشف البطل أن الموسيقى وحدها كفيلة بالقضاء على المعتدين، وهو ما أوافق المؤلف عليه بشرط معرفة النغمات الصحيحة.

عندما تتكرر فكرة معينة فى الانتاج الدرامى لمجتمع ما ، فمعنى ذلك أن العقل الجمعى منشغل بهذه الفكرة أو أنها تضرب على وتر حساس لديه، لماذا ألحت هذه الفكرة على الناس طوال هذه السنين، أن هناك شخصا أو جماعة تخطط وتعمل على القضاء على ما حققوه من إنجاز؟! لا تنتظر منى إجابة فلست أعرف سوى الأسئلة، أنتقل الآن لمشهد أنت تعرفه جيدا، جماعة من المصريين تقضى وقتا هانئا مليئا بالمرح يضحكون فيه بملء صدورهم وفجأة يقول أحدهم : اللهم اجعله خيرا ..

لماذا هذا الشعور المفاجئ بالخوف يصدر عن أشخاص سعداء لم يرتكبوا خطأ ؟ الشائع بين الكتاب والمفكرين، أن المصرى لطول ما مر به من قمع عبر التاريخ ، أصبح يخشى اللحظات الهانئة ،بل يتصور أنها تنذر بخطر وشيك، الواقع أننى لا أوافق على هذا التفسير ، وأتصور أن من آليات العقل البشرى بوجه عام أن يشعر الإنسان بالخوف من الآخرين بعد الإنجاز الكبير أو عندما يحقق درجة من الرفاهية يسبقهم بها.

ولكن السؤال هو، هل هناك فى المقابل من يشعر فعلا بالرغبة فى تدمير إنجازات الآخرين عندما تصل إلى حد معين من الازدهار؟ وما هى الصلة بين الرغبتين أو الانفعالين أو العاطفتين ؟ هل هما آليتان مركبتان غريزيا فى العقل البشرى ؟ هل هى صلة تلازم ، أم أن الأولى (تستدعى) الثانية ؟

يقول المثل الشعبى (دارى على شمعتك تقيد) أى أنه لابد من إخفاء خطوات عملك فى مشروعك عن الآخرين لكى تنجح فى إقامته. أنتقل الآن (لحكمة) قالها كيسنجر أشهر وزراء أمريكا منذ واحد وثلاثين عاما عندما قطع العرب البترول عن الغرب فى حرب أكتوبر :على الغزلان ألا تتباهى يطيب لحمها أمام الذئاب .

النصيحة موجهة إلى الغزلان بالطبع وليس الذئاب، ولكن من المؤكد أيضا أنها تحمل تبريرا أو قدرا من المشروعية للذئاب التى عجزت عن مقاومة الرغبة فى القفز على غزلان تتباهى بطيب لحمها .

فى هذا العصر، عصر الشفافية، من المستحيل أن تدارى على شمعتك حماية لمشروعك، لذلك لابد أن يشمل القانون بحمايته كل من يحمل شمعة مضيئة، وللحد من نشاط أصحاب الرياح التى تطفئ الشموع علينا أن نتيح لهم فرصة امتلاك شمعة، كل إنسان لابد له من مشروعه الشخصى لكى ينشغل بإضاءة شمعته وليس إطفاء شموع الآخرين ، كل خطوة فى اتجاه الحرية السياسية والاقتصادية تقربنا من هذا الهدف.



لتسقط العولمة ... على دماغنا

أنا فى طريقى لعاصمة عربية للاشتراك فى ندوة تليفزيونية عن العولمة. لست أتوقع مفاجآت، إذا أذن لى الله بسلامة الوصول، سأجد فى انتظارى فى المطار مندوب العلاقات العامة، سأركب سيارة أمريكية أو يابانية يقودها سائق من بلوشستان محصوله من اللغة العربية كاف لاستمطار اللعنات على أمريكا وبلاد الغرب بوصفهم العدو الذى يفسد حياتنا ويمنعنا من التقدم.

الطريق من المطار إلى الفندق ناعم كالحرير، سأعرف من السائق أن شركة كورية هى التى أنشأته، عند باب الفندق سيفتح لى الباب شخص هندى مهذب ارتدى ملابس مزركشة تذكرك بالمهراجا، سيتناول حقيبتى شخص من الصومال، على يمين الباب سيحيني ضابط الأمن الخاص المصرى بابتسامة عريضة، موظف الاستقبال سورى، سيحصل على صورة من جواز السفر، باكستانية رشيقة، ستأتينى بمشروب الضيافة بابتسامة فيها من الحلاوة أكثر مما فى كأس البرتقال الذى أحضرته. عامل من بنجلاديش سيحمل لى حقيبتى إلى الغرفة، لن يقف لى مبتسما فى انتظار البقشيش، سأعتذر له باللغة العربية لعدم وجود عملة البلد معى، لن يفهم حرفا واحدا مما قلته ولكنه سيبتسم ابتسامة مفهومة فى

كل اللغات وهو يقول فى سره: آه...أنت واحد من الأوغاد ضيوف الحكومة...لماذا لا تعطينى دولارا...أو يورو...أو حتى خمسة جنيهات مصرية .؟

فى المطعم ، ستقوم على خدمتى حسناء من ليتوانيا، قوامها يذكرك بالأفلام الأمريكية المسموح بها للكبار فقط، المتر دى أوتيل، أسبانى. مدير الأغذية والمشروبات كندى، مدير الفندق هولندى، نائب المدير إنجليزى.

فى الصباح سأجد أمام الباب جريدة عربية والهيرالد تريبيون. لقد سارت الحياة فى طريقها تصنع العولمة فى المنطقة العربية بطريقتها فى ثبات وتركت المثقفين فى السبنسة يعترضون ويحتجون على العولمة الشرسة. غدا مساء فى الاستديو، سأتكلم مدافعا عن العولمة ، كما لوكانت فى حاجة لمن يدافع عنها، أو كأن موافقتى عليها أو موافقة سيادتك ستسمح لها بالوجود الفاعل، سيجلس أمامى وأمام الكاميرات مثقف مناضل، فى الغالب سيكون مرتديا ساعة سويسرية أو يابانية حول يده، وبدلة صوف هيلد انجليزى، وربطة عنق فرنسية من الحرير الطبيعى المستورد من الصين، سيقول إنه ليس ضد العولمة الإنسانية، ولكنه ضد العولمة الشرسة التى ستلتهم ثقافات وتقاليد وخصوصيات العالم الثالث عموما والعرب خصوصا، وأن كلمة العولمة هى آخر اختراع فى القاموس الأمريكى للهيمنة على العالم، وأن غزو العراق هو أحد ثمرات العولمة ولولا العولمة الشرسة لما حدث فى فلسطين مايحدث الآن من مجازر. وبينما أستمع إلى كلماته التى ينطقها فى حدة وتوتر،أتساءل بينى وبين نفسى، ترى، ماهى الحدود الفاصلة بين العولمة الشرسة والأخرى الطيبة؟ وهل الحسناء اللتوانية التى قدمت لى العشاء بالأمس، من نتاج العولمة الشرسة أم الإنسانية؟ الأجابة على هذا السؤال تشكل بالنسبة لى مسألة حياة أو موت،

لنفرض انها عولمية شرسة، أليس من الجائز أن تدس لى السم فى الطعام، وهذا المدير الإنجليزى، هل من المحتمل أن تكون مهمته التى كلف بها هى تطفيش الزبائن للقضاء على الحركة السياحية فى هذا البلد؟ والشركة الكورية التى أنشأت الطرق أليس من المحتمل أنها زرعت تحتها ألغاما تنفجر فى الوقت الذى يحدده شياطين العولمة ؟

وتبدأ مداخلات السادة المشاهدين، ستأتى مكالمات تليفونية من أنحاء العالم، عدد كبير منهم سيوجه لى اتهامات قاسية وخصوصا هؤلاء الذين شاء حظهم التعس أن يعيشوا فى أوروبا وأمريكا بعيدا عن منطقتنا الساحرة الجميلة. معظمهم سيوجه لى اتهامات قاسية، وبعضهم سيعتبرنى عولميا وحشيا ويتعامل معى على هذا الأساس، فجأة سأجد نفسى مسئولا عن كل مصائب المنطقة، بالطبع سأدافع عن نفسى ولكنى بالتأكيد سأكون فى الجانب الخاسر، فى الغالب سأخرج من الندوة مهزوما تسعة- واحد، تسع مكالمات تؤيد زميلى ومكالمة واحدة تتعاطف معى على استحياء. هذا إذا كنت محظوظا لأن عقلاء هذه المنطقة مكبّرين دماغهم، لا يضيعون وقتهم فى الدفاع عن العقل والمصلحة والخير العام. هم حكماء أو يائسون. أما هذه المكالمة الوحيدة التى أتوقعها، فهى بالتأكيد ستأتى من شخص شعر بدرجة من الاستفزاز جعلته يرفع سماعة التليفون ويتكلم مدافعا عن موقفى. إذا لم تأت هذه المكالمة، فلابد أن هذا الشخص تليفونه مقطوع عنه الحرارة لأنه لم يدفع الفاتورة.

هناك كثيرون يتصورون أننى شجاع فى إعلان ما أفكر فيه، وهناك من يعتقد أننى منفلت اللسان، يعلم الله أن الكلمات تخرج من فمى بعد أن تكون قد دارت دورة كاملة فى عقلى مارة بمائة فلتر، أمر واحد أحرص عليه لأسباب صحية- هو ألا أكذب على

نفسى أو على الناس.

وتنتهى الندوة وأكتشف أن خصمى شخص ابن حلال لا هو ضد العولمة ولا هو ضدى. وأنها أدوار نلعبها نحن المثقفين ، لكى نوهم الناس أن لنا أدوارا حقيقية نلعبها دفاعا عن حاضرهم ومستقبلهم، واقع الأمر أن مثقفى هذه الأمة، أغلب من الغلب،وهذا من حسن حظهم وحظ الأمة أيضا. لو أن الأمر متروك لهم، لكان من المستحيل على أنور السادات أن يسترد سيناء، ولكانت مصر فى حالة حرب حتى الآن.

لابد من الاعتراف أن الهجوم على العولمة، بلاهة. والدفاع عنها أيضا مضيعة للوقت. هى واقع حتمه الواقع. إذن القضية فى الأساس هى، ماهى- حقيقة- صلتنا بالواقع ؟

لم يعد يكفى أن تكون موجودا فى هذا العالم، بل من المحتم الآن أن تكون جزءا منتجا ومتعاونا مع بقية أجزاء العالم. لابد أن تقدم للعالم قدرا من الإنجاز يكافئ مايقدمه هو لك. ثقافتك، تقاليدك، خصوصيتك على العين والرأس، لابد أن تحافظ عليها وأن تقدمها للآخرين باعتزاز وفخر، فالعولمة ليست مشروعا لإزالة ملامح الدول والشعوب وإلا أوصلنا ذلك لدنيا ماسخة لا طعم لها، بل لإظهارهذه الملامح بقوة لإثراء الحياة والعالم وليس لإفقاره. العولمة هى أن تعترف بالناس لكى يعترفوا بك، أن تحترمهم لكى يحترموك. يعنى باختصار، لابد أن تكون متواضعا إلى الدرجة التى تعرف فيها إنك لست أجدع من الآخرين.



الفرسان وعساكر السوارى

كانت التقاليد فى الستينات عندما يتم ترحيل المعتقلين إلى معتقل معين، أن يقام لهم حفل استقبال، أى أن يستقبلوا بما يليق بهم من تكريم، ولقد مات أثناء هذا التكريم المرحوم شهدى عطية، وكان الوحيد الذى حكى تفاصيل وفاته هو المرحوم الأستاذ حسن فؤاد أعظم من عرفته المطابخ الصحفية فى مصر، كان رساما وكاتبا ومكتشفا وراعيا للمواهب، ولقد وصف تفاصيل الحكاية فى نثر بليغ نشره فى مجلة صباح الخير، تنزل الجماعة من اللوريات على بعد عدة مئات من الأمتار من البوابة الرئيسية للمعتقل هناك صفان من السوارى أى الجنود الذين يمتطون الجياد وكل منهم يحمل عصا غليظة بدلا من السيف ، وعلى المعتقل أن يجرى بينهما فى الممر المتاح له بين الصفين بينما هم ينزلون عليه ضربا بهذه العصى، وبذلك تكون نجاته فى أن يجرى، يجرى بأقصى سرعة ممكنة إلى أن يصل إلى البوابة بأقل قدر من الإصابات، وعند البوابة يجلس مسئولو المعتقل إلى مائدة طويلة ليثبتوا بياناته.

وسار شهدى عطية فى الممر بين (الفرسان) سار ببطء مرفوع

الرأس، وكان يهتف، لم تكن هتافاته معادية، كان يهتف: تعيش ثورة يوليو.. يعيش جمال عبد الناصر.

غير أن الضربات انهالت عليه فى إيقاعات محمومة بنفس إيقاعات هتافاته، وفى اللحظة التى توقف فيها عن الهتاف، توقفوا هم عن الضرب بعد أن رقد على الأرض جثة هامدة.

كانت الحركات اليسارية فى ذلك الوقت تعتبر الثورة المصرية حركة تحرر وطنى لابد من تأييدها والوقوف إلى جوارها، لذلك كانت الهتافات الصادرة عن المرحوم شهدى تعبر بوضوح عن موقف المجموعة كلها، وكان من المتوقع من القوة الضاربة من عساكر السوارى أن تتوقف عن الضرب أو تجعله أقل قسوة،وإذا افترضنا أنهم لا يعرفون ثورة يوليو ولا جمال عبد الناصر ولا حتى كلمة يعيش، فلقد كان المتوقع من قادتهم الضباط وهم أكثر منهم ثقافة ووعيا أن تصل إليهم رسالته بسرعة ووضوح، وبالتالى يصدرون الأوامر فورا لفرسانهم بالتوقف عن الضرب غير أنهم لم يفعلوا... لماذا؟

لقد وقع المسكين فى فخ المنطق الصورى: هؤلاء المساكين الجهلة يضربوننى لأنهم يعتقدون أننى ضد الثورة وضد عبد الناصر.. وعلى أن أثبت لهم فورا أننى مع عبد الناصر ومؤيد للثورة، عندها يكفون عن ضربى.

هناك «تكت» موضوع على كل شخص من المشتغلين بالعمل العام وليس مسموحا له فى أى ظرف من الظروف أن يخلع هذا التكت ويضع واحدا آخر. هناك لستات (Lists) تحدد هويتك كما قررها النظام، هناك ماركة مسجلة ولا يصح اللعب فى الماركة أو

التسجيل. لقد جاء هذا الرجل إلى هذا المعتقل لأنه ضد النظام وضد عبد الناصر، فإذا غير موقفه الآن حتى لو كان صادقا، فهو بذلك ينتهك أهم قاعدة فى النظام، النظام وحده هو الذى يحدد من معه ومن ضده ثم يصدر قرارا بذلك، عندما تخلع تكت عدو النظام وتضع بدلا منه تكت مؤيد للنظام فمعنى ذلك أنك أعطيت نفسك سلطة اتخاذ القرار. ليس هذا فقط، أنت ترى نفسك كبيرا إلى الدرجة التى تنافسنا فيها فى إصدار القرار.... خلّص عليه ياجدع انت وهو.

عندما تكون كاتبا معارضا، عارض كما تشاء، اشتم من تريد وما تريد، سفه كل ما تفعله الحكومة، حرض الناس ضدها، انزع عنها أى صفة طيبة، قف مع أعدائها، كل ذلك لن يشكل خطرا عليك، فهذا هو بالضبط ما نتوقعه منك طبقا للائحة التوصيف والتوظيف الموجودة عندنا. هذه هى بالضبط الدائرة المسموح لك بالتحرك فيها. ولذلك لن تتعرض لخطر ما، أنت أصلا شخص معيوب بدليل أنك تعارضنا نحن، تعارض أفكارنا التى يعرف القاصى والدانى إنها صحيحة، وهناك قاعدة سياسية صلبة تقول (إن خرج العيب من أهل العيب، ما يبقاش عيب) ولكن اسمح لنا أن نقول لك، فى اللحظة التى تؤيد فيها أى شئ نقوله نحن أو نفعله، ستشكل لحظة خطر حقيقى عليك، فلدينا جيش من المثقفين والكتاب ننفق عليهم دم قلبنا، وظيفتهم تأييدنا والدفاع عن أقوالنا وأفعالنا، وعندما تقوم أنت بوظيفتهم وتعطى لنفسك الحق فى الدفاع عن الحكومة أو النظام فمعنى ذلك ببساطة أنك أصدرت قرارا بحرمانهم من وظائفهم، ليس هذا فقط، لقد أعطيت لنفسك الحق فى تعيين نفسك مؤيدا للنظام،

وهو الحق الأصيل لنا وحدنا، ماذا تنتظر منا غير المتاعب؟

أنا شخصيا لست كاتبا معارضا ولا منشقا ولا مناوئا، بل أرى أن أى صفة نلصقها بكاتب فيها إهانة لهذه المهنة الشاقة الجميلة. فالكاتب كاتب فقط، هو شخص يتعامل مع الوجود مباشرة باحثا عن الخير الأسمى وكيفية الوصول إليه، لذلك سيحتفظ بصفات كثيرة من مراحل الطفولة لعل أهمها الرغبة الدائمة فى اكتساب المعرفة، صدقنى حتى الآن أنا لا أعرف الهدف الحقيقى لمهنة الكتابة غير إنى على يقين أنها تحريض دائم على حب الحياة والدفاع عنها وهى أيضا حرب دائمة ضد القبح، لست أفكر فى مصدر الفعل لأمدحه أو أهاجمه، أنا أفكر فى الفعل نفسه والفكرة التى تسكنه.

وأنا أؤمن بالحرية السياسية والاقتصادية ليس بوصفها جنة الله على الأرض بل بوصفها أخف أنواع الجحيم، ولذلك عندما تعين القيادة السياسية فى مصر حكومة جديدة من العناصر الليبرالية الشابة (شابة الآن تعنى فوق الخمسين أو تحتها بقليل) أليس من الطبيعى أن أدافع عنها وعن كل إجراءاتها التى أرى أنها فى صالح المجتمع. وعندما يطلب الرئيس مبارك إعادة صياغة مادة فى الدستور لأتاحة انتخاب الرئيس فى مصر بالانتخاب وليس بالاستفتاء، هل تتوقع منى ألا أتحمس لذلك؟ وأكتب تحت عنوان «تعظيم سلام للرئيس».

وعندما تتجمع جبهات «لإنقاذنا» خارج مصر من أشخاص كثيرا ما شكلوا فى الماضى خطرا على المصريين، هل تتوقع منى أن أسكت وأترك مهمة التصدى لهم لهؤلاء الذين لم تصلهم

التعليمات بعد؟

فى كل مرة أقع فيها فى هذا الفخ وأدفع ثمنه باهظا، عندها ترتسم فى ذهنى على الفور صورة شخص يهتف للثورة بينما يفتك به فرسان الثورة.

غير أننى للأسف سأقع فى هذا الفخ كثيرا، فخ الدفاع عما هو صحيح، ذاهلا عما يمكن أن يحدثه ذلك فى قلوب غير الموهوبين من غيرة مرضية وغضب وألم، عساكر السوارى الذين نزلوا عن جيادهم وتركوا الهراوات، هم يمسكون الآن بالأقلام ويتحصنون داخل مكاتب لا نعرف لها عنوانا و يصدرون منها القرارات الغبيّة.

كلماتى هذه المرة تثير الألم والشجن، يعز على يا عزيزى القارئ أن أتركك فى هذه الحالة، ما رأيك فى حدوتة قديمة أنعش بها صباحك، الشيخ عبده والشيخ أحمد تلميذان كفيفان فى معهد دينى فى مدينة ريفية ويعيشان فى غرفة صغيرة بها سريران وبعض الحوائج، ويخدمهما طفل صغير جاءا به من القرية، ذات يوم عاد الشيخ أحمد من المعهد فشم رائحة غريبة فى الغرفة إلى أن اكتشف مصدر الرائحة وهنا سأل الطفل: ياولد.... هو الشيخ عبده أ كل فسيخ على سريرى؟

فأجاب الطفل: نعم يا مولانا..

فقال وهو فى أشد حالات الغضب: بقى كده.... طب والله العظيم لازم آكل زفت على سريره.

الواقع أنه لم يقل زفتا، أنا فقط خففت الحكاية، لقد قال إنه

سيأكل شيئا آخر نعرفه جميعا ونتخلص منه فى الحمام كل صباح.

نعم... هناك من يذهب فى غضبه لهذا الحد، إذا لم تدفعك هذه الحكاية للضحك فمن المؤكد أن هناك مؤامرة على كاتب هذه السطور وحضرتك مشترك فيها.



على بياعين العنب

جريدة مستقلة جديدة وما أكثرها هذه الأيام، بعثت فتوى قديمة من مرقدها، وهى الفتوى التى تحرم زراعة العنب المخصص لصناعة المشروبات الروحية، أو بمعنى أدق كما فهمنا، تحريم العمل فى الحقول التى تزرع هذا العنب. وبذلك يكون حكم الفلاح العامل فى هذه الحقول هو نفسه حكم شارب الخمر وبائعها وحاملها. غير أن الفتوى لم تتعرض للحد الواجب إقامته عليه، بما فى ذلك بالطبع عدد الجلدات التى يستحقها، كما أنها - وهذا غريب ومحير - تناولت نوعا واحدا من المشروبات الروحية وهو النبيذ بنوعيه، الأبيض والأحمر (للغلابة الذين لا يعرفون الفرق فى الاستخدام بين النوعين نقول، الأبيض يستخدم عادة مع أكل السمك، والأحمر مع اللحوم وخاصة المشوية منها، والمقصود بها القطع الكبيرة التى يطلق عليها الفرنجة إسمس الاستيك . أما الكباب فيؤكل عادة مع شراب الويسكى كما يسميه أولاد البلد، وبالتأكيد ليس له صلة بالويسكى كما يعرفه الغرب، إنه ذلك الشراب الحراق المتبقى بعد عمل السلطة الخضراء، وهو يقدم فقط فى محلات الكباب فى الأحياء الشعبية) وكما هو متوقع أثارت هذه الفتوى قلقا شديدا فى الأوساط السياحية عند هواة

النبيذ، غير أن المتعاملين مع المشروبات الأخرى شعروا ـ مؤقتا ـ بالارتياح نظرا لأنها لم تتعرض بالتحريم للبطاطس الذى تصنع منه الفودكا والبصل الذى يستخرج منه الويسكى، والشعير الذى تصنع منه البيرة والبلح الذى يستخرج منه مشروب العرق، لأن الفتوى لم تتعرض لها جميعا وتوقفت عند مصانع النبيذ.

لابد لنا فى بداية بحثنا هذا أن نؤكد للجميع بكل وضوح وبأقوى الكلمات ، أننا لا نعارض هذه الفتوى من بعيد أو قريب، أو بأى قدر من المقادير أو بأى مقياس من المقاييس، أو بأى كأس من الكؤوس، بل ونعلن بقوة وكل وضوح تقديرنا لحسن نية من أصدروها، وحماستهم لمنع الحرام من المنبع أى عند الحقل. غير أن أى فتوى مثل أى قانون فى حاجة لمذكرة تفسيرية تشرح فيها للناس كيفية تحويلها إلى واقع عملى، وترد على التساؤلات التى ستنشأ عند التنفيذ، كما ترسم الطريق لحل المشاكل التى ستظهر عند التطبيق العملى. أى أننا فى بحثنا هذا ـ بكل وضوح ـ سنتعرض لنوعية المشاكل المتوقعة عند الالتزام بهذه الفتوى والتى تهدد عمليا بتعطيلها عند تحويلها إلى إجراءات، وذلك بتقديم تصوراتنا عن الطرق الكفيلة بحلها. وإذا كانت الأبحاث الأكاديمية تتكون عادة من أبواب وفصول غير أن طبيعة بحثنا تحتم أن يتكون من عناقيد، بذلك يكون ما تقرأه الآن هو:

العنقود الأول

نظرة تاريخية:

يمثل العنب أعلى درجات الحلاوة والعذوبة عند المصريين وهو ما يتضح فى أغانى الحصاد الشعبية، ومنها الأغنية الجماعية الشهيرة (على بياعين العنب) وفى الغالب كانت تغنيها الفلاحات المصريات عند قطفه وأذكر من كلماتها (العنب عنبى، والجنَب

جنبى، وانت يا شلبى يابتاع العنب) والجنب بكسر الجيم وسكون النون جمع جَنبة وهى أشبه بالمشنة ومصنوعة من نوع قوى ومرن من البوص، أما شلبى، فلم تذكر المراجع أى شئ عنه، غير أن الأغنية تقول عنه أنه (بتاع العنب) وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أنه كان الفلاح المشرف على قطف العنب، إذ أن من المستبعد أن يكون شلبى هذا هو صاحب الأرض، فمن المعروف عن أصحاب الأرض أنهم يمرون عليها مرورا عابرا، لايعطى لعمالهم الزراعيين فرصة الغناء لهم. يعزز من وجهة نظرنا، أن التاريخ لم يذكر واقعة واحدة غنى فيها الفلاحون لصاحب الأرض.

وفى برنامج إذاعى مع المرحوم محمد عبد الوهاب، أبدى إعجابه الشديد بنداءات الباعة الجائلين، وغنى أحد هذه النداءات بتنويعات موسيقية جميلة وهى (يا جميز بنكلة الوزنة يا عنب) هكذا يتضح لنا أنه حتى عندما كان البائع يبيع جميزا، كان حريصا على تشبيهه بالعنب (وبالمناسبة، اختفت هذه الثمرة اللذيذة من حياتنا) وهذا ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه من أن العنب يمثل أعلى درجات الحلاوة عند المصريين. هذا عن الفلكلور الشعبى، وفى الغناء الفردى هناك أغنية لعبد الغنى السيد تقول - ياعقد لولى شبكه الهوى، مين يوصفولى، ونقول سوا يا جواهر.. يا جواهر.. يا جواهر يا عنب - هنا نجد أن المصرى ارتفع بالعنب إلى أعلى درجات التقييم والتثمين بعد أن شبهه باللآلئ والجواهر. هذه مقدمة سريعة نشرح بها المكانة العالية التى يمثلها العنب فى تراث المصريين.

مشاكل متوقعة وطرق حلها

- صاحب الحقل يزرع العنب،ثم ينتظر من يأتى ليشتريه بأعلى سعر وهو تاجر الجملة الذى سيرسله إلى سوق الخضار، وهناك

سيبيعه لتجار النصف جملة الذين سيبيعونه لتجار التجزئة الذين سيبيعونه للفكهانية. سلسلة طويلة من الوسطاء والتجار، من الذى يضمن أن التاجر لن يبيع العنب لمصانع المشروبات الروحية؟

هذه ليست مشكلة تعطلنا، ويمكن التغلب عليها بأن يكتب التاجر إقرارا مسجلا فى الشهر العقارى يتعهد فيه بأنه سيبيع العنب للفكهانية فقط ولتجار التجزئة الذين يعملون معهم، ومع كل انتقال للعنب بالبيع لوسيط أو تاجر، يوقع على الفور تعهدا بذلك يعطيه للتاجر الذى اشترى منه، وفى حالة عدم الالتزام توقع عليه العقوبة القانونية، وهذا ما يحتم أن نصدر قانونا على وجه السرعة يحدد العقوبة الواجبة فى هذه الحالة وأنا أقترح السجن والغرامة، ولست أحبذ عقوبة الجلد ليس لأنها منافية للذوق الإنسانى الآن، بل لأننى واثق أن كبار التجار سيرسلون بصبيانهم الأبرياء المساكين ليجلدوا بدلا منهم.

هكذا تنشأ الحاجة لإدارة جديدة تشرف عليها ثلاث وزارات، الداخلية والزراعة، والتموين وجهات أخرى. هذه الإدارة ستتابع تنفيذ هذه العملية، كما ستشرف على تطبيق القانون (إدارة علىّ وعلى أعدائى وعلى بياعين العنب) وهى إدارة (من الأفضل أن تكون وزارة) لابد أن تتوافر لها كل العناصر والإمكانيات التى تساعدها على النجاح فى مهمتها، ومنها قمر صناعى خاص بها يراقب حقول العنب فى مصر كلها، مع عدد كبير من الموظفين من أصحاب الكفاءات العالية ثم حملة ميكانيكية قوية تكفل للعاملين بها الوصول لأى مكان بسرعة، طائرات هليوكوبتر، سيارات ذات دفع رباعى، موتوسيكلات، خيل ، بغال ، حمير، للوصول إلى الأماكن التى تعجز الحملة الميكانيكية عن الوصول إليها بالإضافة بالطبع لقسم تحريات قوى وقسم معلومات يتلقى البلاغات، ثم جهاز مباحث خاص، ومن الأفضل أن نخصص لها جهاز قضاء سريع

يتخصص فى هذه القضايا فقط، وربما كان من الأفضل أن تتم للخارجين عن القانون محاكمات ميدانية فورية فى الغيطان وأسواق الخضار. إن السرعة هنا أمر مهم للغاية، فمن المستحيل أن تقبض على كمية مخالفة من العنب ثم تحرزها وتضعها فى مخزن لشهور أو أيام، لأنها بالتأكيد ستتخمر وتتحول لنبيذ وهذه كارثة بالطبع.

ألاعيب وتلاعب

لنا أن نتوقع بعض الألاعيب، ومنها أن يباع العنب لأصحاب محلات الفاكهة، بعدها بلحظات يرسل أصحاب المصانع أعوانهم بوصفهم زبائن لشراء هذا العنب. وحل هذه المشكلة بسيط للغاية، على كل فكهانى إذا ساوره الشك فى الزبون، أن يبلغ عنه على الفور مكتب العنب التابع له، من السهل كشف الزبون عندما يطلب عشرة كيلوجرامات مثلا أو عندما يلاحظ البائع أنه يمر عليه كل يوم. بالطبع يجب ألا يمتنع عن البيع وإلا حدثت مشاكل أكبر من حكاية تحريم العنب من الممكن أن تخل بالسلام الاجتماعى، الحل سهل، على كل فكهانى أن يحتفظ بدفتر يكتب فيه الزبون إسمه ورقمه القومى، وعنوانه وفى خانة الهدف من الشراء، يكتب عدد الأفراد الذين سيشاركونه أكل هذا العنب وأسماءهم ثم يوقع على الدفتر أو يبصم.

لنفرض أن الفكهانى تواطأ مع الزبون، فى هذه الحالة قد يكون من المناسب إلحاق مخبر مقيم بالمحل، وحتى عندما يتواطأ الفكهانى مع الزبون والمخبر ، فالحل هو حملات التفتيش المفاجئة ، وعموما يجب ألا يزعجنا ذلك ففى أى جريمة من أى نوع هناك نسبة ضئيلة من المجرمين الأوغاد يتمكنون من الإفلات بجريمتهم.

هناك الاعيب أخرى لا تخطر على البال، فقد تثبت التحريات أن تاجرا ما باع عنبه إلى أحد المصانع إياها، فى هذه الحالة

سيكون من السهل عليه أن يشترى على وجه السرعة نفس الكمية ويقول للمحقق: ما حصلش .. العنب أهو ... لسه ما بعتوش.... السوق وحش .. تشتريه حضرتك يافندم..؟

لا توجد مشكلة لا حل لها على الأرض، الحل هو ترقيم وتشفير العنب ، عنبة عنبة فى الحقل، ماكينة ترقيم وتشفير مجهزة بكمبيوتر، تقوم بتركيب تكت صغير على كل عنبة بغير أن ينفرط عنقود العنب ـ التكنولوجيا تصنع المعجزات هذه الأيام ـ هذا الكمبيوتر متصل بالكمبيوتر المركزى فى الإدارة المركزية، هكذا يمكن عند القبض على أى عنبة فى أى مكان التعرف على المكان الذى زرعت فيه، وإسم البائع والمشترى وخط سيرها بوجه عام.

هل لديك مقترحات أخرى؟



هل دافعت عن حبك الأول

سألتهم: من سيكون معي في البرنامج؟
قالوا : الدكتور فلان .. باحث من عمان.

قبلت الظهور في ذلك البرنامج الإثاري الشهير مع ذلك الباحث وأنا مطمئن تمام الاطمئنان إلي أن حواري مع باحث حاصل علي الدكتوراه سيحوي عناصر من العقل والمنطق تجعله مفيدا للمشاهدين. وبالنسبة لي ستكون فرصة جيدة للتعرف علي وجهة نظر الآخر في الحرب والسلام من خلال شخص يعمل بالبحث العلمي.

في البرنامج، شرحت وجهة نظري في حتمية العمل من أجل السلام من خلال التفاوض المباشر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وانتظرت وجهة نظره، نظر لي في استنكار وصاح : ألا تعرف أن الحجر سينطق يوما ما ويقول .. يا مسلم، إن ورائي يهوديا فاقتله؟ هل تعرف أن اليهود هم قتلة الأنبياء..؟ هل تعترف بذلك أم لا..؟

رددت عليه : يا سيدي .. كلمني في السياسة من فضلك .. كيف سنصل معهم إلي السلام؟ ما هي الخطوات المؤدية لذلك .. ما هو مشروعكم؟ من الواضح إنك في هذا البرنامج تمثل جماعة حماس .. ماذا تقترح للوصول إلي السلام؟

فصاح وكأنه يدفع عن نفسه تهمة عظمي : لا .. لست من جماعة حماس .. ولكني أرحب بأن أكون حذاء في قدم أي حماسي.

يا لحدة ذكاء الرجل، هو علي يقين من أن ردي لن يخرج عن أن يكون : وأنا لم آت لهذا البرنامج للحديث مع حذاء .. لقد جئت للحوار مع إنسان.

لو أنني قلت هذه الجملة، أو أي كلام مشابه، لخسرت معركتي علي الفور، ولتمكن هو من نسفي نسفا، تجاهلت جملته وسرحت بعيدا عن موضوع الندوة. جزء من عقلي ظل يتعامل مع الندوة بغير تركيز بينما أجزاء أخري سرحت بعيدا تتعامل مع أسئلة أخري. لماذا يعلن هذا الرجل الحاصل علي الدكتوراه للعالم كله أنه ضد اليهود بوصفهم يهودا؟ وبذلك يحول قضية الشعب الفلسطيني إلي مجرد صراع ديني بين أصحاب ديانتين.. بعد ذلك يتبرأ من عضويته لحماس وفي الوقت نفسه يعلن ترحيبه بأن يكون حذاء في قدم أي عضو لحماس.. لماذا اختار له خياله هذه الصورة غير الكريمة؟ الأنا تصبح حذاء.. والآخر يكون القدم؟ من أين ينبع ذلك الكم الهائل من احتقار الذات؟!

بعدها بسنوات، قال لي زعيم متطرف آخر علي الهواء: لا.. أنا لست من أتباع بن لادن.. وإن كنت أرحب بأن أكون شعرة في صدر بن لادن.

حكاية أن يكون الإنسان شعرة في جسم إنسان آخر أخف وطأة بكثير من حكاية الحذاء في قدم الآخر، وهي أيضا صورة معروفة في الفكر الشعبي، يستخدمها ابن البلد عندما ينافق ممازحا شخصا آخر: أنا بتاعك يا بيه.. اعتبرني شعرة في (..... سعادتك)

ولكنه لا يحدد الصدر كمكان، بل يذكر مكانا آخر في القطاع الأوسط من الجسم البشري في أقصي الجنوب من الصدر. ولكن

ابن البلد لا يقول ذلك نفاقا بل علي سبيل السخرية من النفاق والمنافقين. غير أنني أعتقد أن ذلك القدر الهائل من احتقار الذات عند المتطرف الثوري ليس إلا غطاء لقدر أكبر منه من الإحساس بالذنب. تري ما هو مصدر ذلك الإحساس المروع بالذنب الذي ما يلبث أن يتحول إلي إحساس قاتل باحتقار الذات ويعبر عن نفسه بمفاهيم وسلوك يحتقر الحياة نفسها ويعمل علي تدميرها.

إذا كان من المتفق عليه بين الجميع أن كل الملامح الأساسية للإنسان يتم رسمها في سنوات عمره الأولي، لذلك تعال نعيد البحث في هذه الفترة علنا نجد تفسيرا لتلك الرغبة في أن يكون الإنسان حذاء ومن فضلك لا تصدقني كل التصديق، أو تتعامل مع ما أقول بوصفه قاعدة علمية، أنا مثلك تماما مجرد شخص يحاول الفهم. أعرف أنه من الصعب عليك أن تتذكر ما حدث لك بعد نزولك من الرحم مباشرة، ولكن حاول. لابد أنك تذكر شيئا من تلك المرحلة التي يمكن تسميتها، مرحلة الحب العظيم، الأم.. أول حبيبة في حياتك، جسم دافئ يحتويك، طعام لذيذ ينزل في فمك حلوا، أنفاس جميلة، دقات قلب منتظمة في إيقاعات عذبة تسلمك إلي نعاس لذيذ. ماذا علي الأرض أعظم من ذلك؟ مع الأيام تكتشف كائنا آخر هو الأب، عملاق له ذقن خشنة وأنفاس كريهة. وهو ما سيشعرك بذلك الإحساس المؤلم الذي يسميه البشر، الغيرة، نتيجة لأنه يخطف منك حبيبتك أحيانا. ولكنك بعد شهور ستكتشف أمرا مؤلما بحق، أن هذا العملاق يعامل حبيبتك – أعظم مخلوق في الدنيا – باحتقار. وأن حبيبتك، ليست أكثر من مخلوق درجة ثانية أنت عاجز عن حمايته. ها أنت ـ يا مسكين ـ تكتشف عجزك عن حماية أعظم ما في وجودك.

ليس هذا فقط، ستكتشف أن ذلك المخلوق الذي هو مصدر حياتك يسمي الأنثي، وأنها أقل شأنا من الذكر. وينمو بداخلك

الإحساس بالذنب، وينمو معه الإحساس باحتقار الذات بعد أن قيمت كل التقييم مالا قيمة له، وثمنت غاليا ما لا ثمن له، وأحببت أعظم الحب من لا شأن له. ها أنت قد بدأت في وقت مبكر جدا في الإحساس بالذنب الذي سيدفعك فيما بعد إلي احتقار نفسك الذي ستعبر عنه باحتقار الآخرين. إن إحساس المتطرف الثوري العقيدي أو السياسي أن الآخرين لا أهمية لهم ليس إلا امتدادا لإحساسه هو نفسه بانعدام أهميته.

كل بيت تعامل فيه الأم، باعتبارها مواطنا من الدرجة الثانية، أو بوصفها أنثي أقل شأنا من الذكر، هو مصنع صغير لإنتاج القتلة أو في أفضل الأحوال، الكارهين للحياة والعاملين علي تدميرها.



محاربون دفاعا عن العبودية

جيرار دي نيرفال مثقف فرنسي زار مصر في منتصف القرن التاسع عشر، الإقامة في الفنادق وتناول الطعام في المطاعم الفاخرة كانت تكلفه الكثير، استأجر بيتا في حي راق وعين خادماً بأجر محترم هو خمسة مليمات في اليوم (شيخ الجامع في ذلك الوقت كان مرتبه في الشهر خمسين مليما فقط) في اليوم التالي زاره شيخ الحارة وقال له: هذا الحي تسكنه عائلات، وأنت أعزب.. سأعطيك مهلة لمدة شهر واحد، إما أن تحضر امرأة أو تغادر لمكان آخر.

جرب صاحبنا أن يتزوج من قبطية مصرية ولكن المشروع فشل فلمعت في رأسه فكرة لماذا الزواج؟ شيخ الحارة قال امرأة ولم يقل زوجة، لماذا لا أشتري جارية وأخوض هذه التجربة المثيرة، علي الأقل سأجد من يخدمني نهاراً ويمتعني ليلاً مجاناً، وعلي الفور ذهب إلي أقرب تاجر للرقيق، عاين البضاعة المعروضة. أخيراً وجد واحدة معقولة بسعر معقول (ثلاثة جنيهات) ولكنه لم يكن راضيا كل الرضي فأفهمه التاجر أن هناك شحنة جواري ممتازة قادمة في الطريق عن طريق البحر من جدة، وأنها ستصل بعد أسبوع.

وبالفعل اشتري جارية من النوع المفتخر بلغ ثمنها (ياللهول) عشرين جنيها. وكانت أمسية رائعة فالجارية جميلة وذات خبرة سابقة ممتازة، فقد كانت جارية لتاجر هندي باعها لتاجر حجازي، باعها بدوره ربما لأنه كان يعاني نقصاً في السيولة، وفي الصباح قبل أن يخرج سألها: ماذا تريدين أن تأكلي اليوم؟

- ما ستأكل منه.

● نعم، نعم، أقصد ماذا تريدين أن أرسل لك مع الخادم؟

- إرسلٍ ما تريد أن ترسله.

● حسناً.. ماذا تريدين أن تطبخي؟

- ماذا؟!.. أطبخ..؟.. يبدو أن رأسك مليئة بالأوهام.. أنا لست خادمة، أو طباخة، أو غسالة، أنا ست.. إذا أردت من يطبخ لك فاستأجر طباخاً، وليكن في علمك، إذا أرغمتني علي عمل شيء في هذا البيت فسأشكوك فوراً للباشا (محمد علي) فيرغمك علي أن تبيعني.

خرج الرجل مذهولاً وتحدث مع أصدقائه في الموضوع فقالواله: هي محقة تماماً.. وإذا وصلت شكوي منها للباشا فسيرغمك علي أن تبيعها فوراً.

هذه الواقعة دفعت دي نيرفال إلي إعادة التفكير فيما تعنيه كلمة (رق) في القاموس المصري في ذلك الوقت وما تعنيه نفس الكلمة في القاموس الأوروبي قبل الثورة الفرنسية، وعندما قرر أن يغادر مصر بعد ذلك في طريقه إلي الشام جاءها وعلي وجهه ابتسامة عريضة: لدي مفاجأة مفرحة لك.

- ما هي؟

:الحرية.. سأعطيك حريتك.. سأعتقك.

- ماذا؟.. حريتي؟.. ماذا تقصد؟.. هل تريد أن ترميني في الشارع مثل القطط والكلاب؟

: ماذا أفعل إذن؟.. لابد أن أسافر.. ما هو الحل؟
- الحل هو أن تبيعني.. (يا للثقة، من الواضح أنها كانت علي يقين من أنها مازالت بحالة ممتازة).
: أنا عاجز عن أن أبيع إنساناً.
فردت عليه وهي تشير بأصبعيها: خلاص.. سوا.. سوا.. سأسافر معك.
وسافرت معه ولم يعرف التاريخ مصير هذه السيدة التي رفضت الحرية، وفي وسعك يا عزيزي القاريء أن تقرأ كتاب دي نيرفال الجميل (امرأة من القاهرة - رحلة إلي الشرق) لتتعرف علي ملامح مصر في عصر من أكثر عصورها ازدهاراً. غير أنني سأركز في كلمتي معك علي فكرة الحرية، هل كانت هذه السيدة علي حق عندما تصورت أن الحرية والانعتاق تعني أن يلقي بها إلي الشارع مثل القطط والكلاب؟
أستطيع علي الأقل أن أؤكد أنها كانت صادقة مع نفسها، تماماً ككل أصحاب الأقلام الذين يكافحون مشروع التحول إلي الحرية السياسية والاقتصادية، فالقاعدة التي تربوا عليها هي أن تتولي الحكومة أو الحزب أو الحاكم كل شئون حياتهم، وبذلك يكون النظام الشمولي والقائد الشمولي والحكومة الشمولية هو ما يحميهم من أن يلقي بهم في الشارع مثل القطط والكلاب. المطلوب فقط هو ترديد الشعارات، وإطلاق صيحات الفزع، هو مقرر بسيط للغاية أكثرهم عجزا سيكون أكثرهم حفظا له، أما الحرية فهي عبء لا يطاق لأنها تحتم أن يتقنوا شيئاً الناس في حاجة إليه.
الحرية هي الحق في ممارسة العمل وتقديم الأفضل، والمجتمعات الحرة هي تلك التي ينشغل أفرادها في كل مجال بتقديم الأفضل، وبذلك تكون الحرية هي الطريق الوحيد - ولا طريق غيره - للوصول إلي الأفضل. الحرية هي الكفاءة والإتقان،

وبذلك تكون امتداداً طبيعياً لعاطفة احترام الذات، والمعسكر الاشتراكي والثوري عموما, سقط لأنه لم يتح للناس الفرصة لتقديم الأفضل، حرمهم من ذلك الإحساس الجميل باحترام الذات.

أنا أكره العبيد ليس لأنهم ضعفاء وجبناء، بل لأنهم يحرموننا من تقديم الأفضل. يفزعهم أن نكون أحراراً. و حزين لأنني أكتب عن الحرية في عصر فرغ فيه الكتاب من الكتابة عنها وتفرغوا للاستمتاع بها. الحرية مثل الحب، لا يعرفه العجزة البلداء الكارهون. أنا شخصياً أريد الاستمتاع بالحب وليس الكتابة عنه، ولكن للضرورة أحكام.



الشعكبوس

الفيلم قـديم كـمـا أنا قـديم، كـان بطله بيـتـر أوتول وجـمـيلة الجميلات أودرى هيبورن، ربما كان اسم الفيلم هو كيف تسـرق مليون دولار، فى ذلك الزمن البعيد الذى كان فيه اللصوص لا يحلمون بسرقة مبلغ أكثر من ذلك. كانا يخططان لسرقة تمثال محفوظ فى متحف، التمثال كان صغيرا ، طوله ثلاثون سنتيمترا تقريبا . البطل الحرامى من الواضح أنه كان من كبار دارسى علم النفس السلوكى، يتضح ذلك من الخطة التى وضعها لسرقة التمثال، بعد خروج الزوار من المتحف، سيظل هو والبطلة مختبئين فى فراغ ضيق تحت أحد السلالم، وبالمناسبة كان هذا المشهد من أجمل مشاهد الفيلم،مرحبا باللصوصية إذا كانت تتيح للإنسان الفرصة للبقاء مع أودرى هيبورن ـ زمان ـ فى هذا المكان الضيق تحت السلم ،هناك حراسة مشددة داخل المتحف وخارجه، التمثال معروض فوق قاعدة طويلة ، هناك حارس يمر على القاعة كل عدة دقائق ويلقى نظرة على مافيها، بالتأكيد سيكتشف اختفاء التمثال ويتم القبض على البطل والبطلة،غير أن البطل اهتدى لحل، أن يسرق التمثال ويضع بدلا منه زجاجة نبيذ، ثم يختفى تحت السلم حتى الصباح ويخرج مع الزوار، فيضرب بذلك عصفورين بحجر

واحد، التمثال القيم وأودرى هيبورن.

ويدخل الحارس ويلقى نظرة على التمثال ويطمئن لوجوده،لم يفطن إلى أن التمثال اختفى وإن مايراه هو زجاجة نبيذ. نظرية بطل الفيلم الحرامى، مبنية على أن الأنسان عندما (يتعود) على مشاهدة ومعايشة شئ لفترة طويلة تصنع له وجودا مستقلا داخل عقله وليس فى الواقع، مشاهدة التمثال فى مكانه تحولت لعادة عقلية عند الحراس ليس لها صلة بالتمثال نفسه،أى أنهم سيرون زجاجة النبيذ تمثالا ، هذا ماحدث بالفعل مع كل حراس المتحف ، لم يكتشفوا الأمر إلا بعد دخول الزوار فى الصباح وصاح أحدهم : الله.. ده مش تمثال.. ده قزازة نبيذ..

عندما نتعايش مع الخطأ لفترة طويلة، يكف عن أن يكون خطأ، بل ويتحول إلى صورة صحيحة فى ذهنك،وبمرور الوقت يتحول إلى ثابت من الثوابت التى لا يجب الاقتراب منهاأو مراجعتها أو التأكد من أن لها وجودا فعليا فى الواقع . لقد كذب الحراس على أنفسهم بغير وعى وبدون أن يتعمدوا ذلك، هناك صورة تمثال انطبعت فى أذهانهم كان من المستحيل محوها. هذا هو ما يحدث بالضبط داخل أذهان البشر عند اعتناق الكذبة الجماعية، عندما يكون منهج التفكير السائد هو أن يكذب الجميع على الجميع. فى هذه الحالة يفقد الكذب صفته الأساسية وهو أنه كذب، وبالتالى لا يرفضه أحد ولا يستهجنه أحد، بل يحدث أحيانا أن يتم تمجيده بوصفه صدقا خالصا،هذا هو ما يحدث فى مجتمعات كثيرة آليات التفكير عندها مبنية على التكاذب المريح للجميع لأنه بطبيعته لا يدفع للتصادم.

والتكاذب وسيلته الوحيدة هى الكلمات، سأعطيك بعض الأمثلة، أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفنى، نحن جالسان فى مقهى، سنتبادل أطراف الحديث، اسمح لى أنا أن أبدأ الكلام ، سأقول : رأيت

بالأمس سيدة محترمة ترتدى شعكبوسا أزرق ... إن منظر امرأة ترتدى شعكبوسا أمر يتنافى مع تقاليدنا .. ألا ترى أنه أمر فظيع أن يرتدى الإنسان شعكبوسا .. ما رأيك؟ هل توافق على أن ترتدى امرأتك أو إبنتك أو إحدى قريباتك شعكبوسا ؟

الطبيعى والبديهى هو أن تسألنى : ما هو الشعكبوس من فضلك ؟

ولكنك لن تفعل، فأنت لا تتصور أن يحدثك مخلوق بمثل هذه الجدية عن شئ لا وجود له، أنت تخشى أن تبدو جاهلا أمامى، ستسايرنى على أمل أن تعرف ما هو الشعكبوس من خلال الحديث بيننا، ستقول لى : أنا شخصيا لى موقف قديم من الشعكبوس.. لقد كان شرطى الأول على زوجتى فى فترة الخطوبة هو ألا ترتدى شعكبوسا.. ولقد تدخل أهلها فى الأمر لإثنائى عن موقفى ولكنى أصررت على ذلك وحتى الآن لم يدخل الشعبكوس بيتى.. أنا معك بالطبع أنه أمر مقزز أن ترى فى الشارع سيدة ترتدى شعكبوسا أزرق، ولكنى فى هذه الحالة أكتفى بالنظر إلى الناحية الأخرى..

فى تلك اللحظة سيتدخل واحد من الجالسين بالقرب منكما ويقول: هل تتصور أن ذلك هو الحل.. أن تغمض عينيك عندما ترى شعكبوسا..؟ يا جماعة مالم يتصد المجتمع لظاهرة انتشار الشعكبوس هذه الأيام، سوف يصاب هذا المجتمع بكارثة كبرى عما قريب.

وتتسع دائرة الحوار وينضم لكم آخرون وعندما تغادرون المقهى ، ستكون فكرة جديدة قد جمعت بينكم.

امش معى خطوة أخرى، أنت فى بيتك الآن، تناولت طعام العشاء، وبدأت فى مشاهدة تمثيلية تليفزيونية مسلسلة تدور حوادثها حول عصابة تقوم بتهريب الشعكبوس ورجال الشرطة يطاردونها، وفى الصباح تقرأ مقالا يعدد أخطار الشعكبوس، وعلى

الصفحة الأخرى تقرأ مقالا آخريحاول فيه صاحبه أن يبين أن الشعكبوس ليس ضارا عندما يستخدم بغير إفراط.. وفى صفحة الحوادث ستقرأ خبرا عن القبض على صاحب مصنع متلبسا بغش الشعكبوس. وربما تقرأ على الصفحة الأخيرة خبرا عن مفكر كبير رفض جائزة الشعكبوس الذهبية.

فى هذه اللحظة سيكون للشعكبوس وجود فعلى فى حياتك، وجود فعلى (صادق) فى عقلك يحتل مكانا صحيحا فى تفكيرك، هكذا تحدث عملية التكاذب بين الجميع، والويل كل الويل لمن يجرؤ على السؤال : ما هو الشعكبوس يا سادة ؟

والآن تعال معى ندخل مخزن الشعكبوسات الذى يعشش فى عقولنا ونتعرف على بعض مافيه من أوهام ، مارأيك فى عبارة، بطالة مقنعة (يا لعبقرية اللغة التى أوضحت الصلة القوية بين الباطل والبطالة) وعبارة عمالة زائدة؟

أنا أتحداك أن تكون قد قرأت مقالا أو بحثا ، يقوم فيه أحد الكتاب أو الباحثين بشرح معنى مصطلح (البطالة المقنعة) كيف نتعرف على العاطل المقنع ؟ كيف نفرق بينه وبين الآخرالعاطل الصريح، هل هو فعلا يتقنع بقناع مثل زورو مثلا ؟

كل منا متروك ليفهمها على النحو الذى يروق له، وأقرب فهم لها هو أنك تعمل فى مكان ولكنك عاطل،وهذا عدوان على أبسط قواعد المنطق وهو أن الشئ من المستحيل أن يكون وألا يكون بنفس الكيفية فى نفس الوقت، الأمر هنا أشبه بمن يرسلك إلى السوق لتشترى له ثلجا ساخنا. بشر لا يعملون شيئا، ويرتدون قناعا هو العمل، كيف نعرفهم ؟ لنفرض أنك دخلت مكانا وقابلك فيه أحد الأشخاص العاطلين المقنعين، كيف تعرفه وهو واقعيا لا يرتدى قناعا ؟ هل توجد فى أى جهة فى مصر كشوف بها أسماء الأشخاص الذين يشكلون البطالة المقنعة؟

لنفرض - من أجل الإصلاح - أننا قررنا التخلص من البطالة المقنعة، لنفرض أن ملاكا هبط علينا من السماء أو عفريتا طلع لنا من تحت الأرض وقال لنا : أنا عاوز أخلصكم من البطالة المقنعة.. حا خدهم أشغلهم عندنا..بلاش تسلموهم لى منعا للإحراج.. هاتولى كشوف بأساميهم وما لكوش دعوى بالباقى .. أنا حاخدهم..

بماذا سنرد عليه؟

أنا أتحدى أى مخلوق أن يقول لى إنه توجد طريقة على الأرض يمكن بها التعرف على ما يسمى بالبطالة المقنعة تماما كما لا توجد أى طريقة نتأكد بها من وجود الشعكبوس.

أما حكاية العمالة الزائدة فهى كذبة جماعية شعكبوسية من الوزن الثقيل، كلمة عمالة تعنى بشرا يعملون، وكلمة زائدة تعنى أن العمل ليس فى حاجة إليهم، كيف يعمل إنسان فى مكان بينما المكان نفسه ليس فى حاجة إليه؟ أنا أفهم أن تقول الحكومة لشخص ما : تعال لتعمل عندى..

غير أننى لن أفهم - ما حييت - أن تقول له : تعال عندى لكى لا تعمل لأننى لست فى حاجة إليك..

فى طفولتى - لا تخدعنك المظاهر، أنا أيضا كنت طفلا يوما ما - عندما كنت أخرج إلى المدرسة فى السابعة صباحا، كنت أرى كل الدكاكين والورش وقد فتحت أبوابها فى انتظار الرزق، أما الآن فالغالبية العظمى من أصحاب المحلات والورش يفتحونها فى منتصف النهار،وكأن الزمن أصبح عبئا على المصريين، بلد تتحدث حواديته ومصطلحاته وأمثلته الشعبية عن الاستيقاظ مبكرا، فجأة يجعل من ضياع الوقت والعمر قاعدة مرعية يلتزم بها الجميع فى صرامة، أنا حزين لأننى على ثقة أن أجيالا ستظهر، أولعلها ظهرت بالفعل، عندما ستطلب منهم أن يبدأوا عملهم مبكرا كما كان يفعل

أباؤهم وأجدادهم، سيثورون فى وجهك ويصيحون بك : بتقول إيه يا ظالم ... يعنى إيه نصحى بدرى ؟... إيه اللى حصل عشان نغير تقاليدنا وعاداتنا وتراثنا وخصوصيتنا ؟ حتى النوم مش عاوزنا نتهنى بيه ؟!

إنه التكاذب اللعين الذى يجعلنا نرى كل ما نفكر فيه ونفعله من أخطاء، صحيحا كل الصحة صادقا كل الصدق.

هذا هو سر متاعبنا مع كل من لنا معه متاعب، نذهب لهم فى وفود، ونكلمهم بصدق عن متاعبنا مع الشعكبوس.. وضرورة أن يساعدونا فى مواجهتها،فيلفون ويدورون ويتظاهرون بالسذاجة ويسألون : ما هو الشعكبوس؟

طبعا هم أوغاد يعرفون كل شئ ولكنهم يرفضون مساعدتنا.

أما أقاربنا الشعكبوسيون الأصلاء فهم يقابلوننا بالأحضان : حمد الله على السلامة.-هيه.. أخبار الشعكبوس إيه؟

- ماشى الحمد لله.هو فيه شوية متاعب كده اليومين دول .. وشوية مشاكل ، بس حا تتحل إن شاء الله..

: نفس الحكاية عندنا ... بس احنا خدنا قرار أى حاجة تتعلق بالشعكبوسية ، تتحل من الداخل مش من الخارج...

- على خيرة الله... إزيكم وازىّ الأسرة الكريمة والأولاد ... وازىّ العراقيين..وازىّ الفلسطينيين.. وازىّ السودانيين...وازيكم جميعا؟



مصر أيام الشدة الصبّاحية

نحن الآن فى شـهـر أغـسطس ٢٥٠٠ أى أننا انتقلنا فى الزمن ٥٠٠ عـام إلى الأمـام، ومسـألة الانتقـال بين الأزمنة من الحـاضـر إلى الماضى أو إلى المستقبل شغلت أذهان الكثيرين من العلماء والمفكرين، بل أن هناك من يقول إن اللحظة الحاضرة تحوى بداخلها الماضى والمستقبل، لست الآن بصدد شـرح هذه النظرية المعقدة للغاية لسببين، الأول هو أننى عاجز عن فهمها والثانى هو أن حضرتك مهما بذلت معك من مجهود فى الشرح ستعجز أيضا عن فـهـمهـا، كل مـا أطلبه من سيـادتك هو أن توافق على أننا قد انتقلنا خمسمائة عام إلى الأمام، وأننى الآن أقوم بالبحث فى وثائق تلك الفترة المهمة من تاريخ مصـر ـ والا عاوزنى أسيبها للأستاذ هيكل ـ وأقصد بها تلك الفترة التى شاهدت أول انتخابات رئاسية فى مصر، وكانت المنافسة فيها بين الرئيس محمد حسنى مبارك الذى كـان رئيسا لجمهورية مصـر فى ذلك الوقت، وأيضا أقوى المرشحين، ونعمان جمعة رئيس حزب الوفد الذى تم تعديل إسمه فى مرحلة تالية إلى حزب نعمان جمعة كما تم تعديل إسم جريدته إلى جريدة نعمان جمعة. كان هناك عدد كبير من المرشحين غير أننا من خلال الوثائق استطعنا الوصول إلى إسمين هما أيمن نور

رئيس حزب الغد، والشيخ أحمد الصباحى رئيس حزب الأمة وهو الإسم الذى حير المؤرخين، فبعضهم يقول إن الحزب كان امتدادا طبيعيا للدولة الأموية، والبعض الآخر ينسب الحزب إلى الأمية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت.

كانت فرصة الصباحى كما يجمع كل المؤرخين منعدمة تماما فى النجاح فى تلك الانتخابات، ويبدو أنه لا أحد كان يأخذ الحزب على سبيل الجد، ولذلك كانت المفاجأة شديدة لكل الدوائر السياسية فى العالم عندما اكتسح الرجل منافسيه وفاز بالمنصب وحكم مصر لفترة رئاسية كاملة. وهى الفترة التى تسمى الشدة الصبّاحية.

من خلال أقوال الرجل المنشورة وما كتب عنه نستطيع أن نحكم عليه بأنه من المهتمين بعلوم ما وراء الطبيعة، ولكن الأكثر أهمية أنه كان يتمتع بطاقة روحية هائلة استخدمها فى الاستيلاء على عقول لجنة الأحزاب فأعطته حزبا، أما الأمر الذى حسم نتيجة الانتخابات لصالحه، فكانت قدرته من خلال تلك الطاقة الروحية والنفسية على الإيحاء للناخبين بأن يدلوا بأصواتهم لصالحه. وهو بالضبط ما حدث. ليس لدى دلائل لا تقبل الشك على صحة هذا التفسير ولكن لدى قرائن ربما ترقى إلى مرتبة الدليل، لقد صرفت الحكومة فى ذلك الوقت مبلغ نصف مليون جنيه لكل مرشح، وبالفعل بدأوا ينفقون من هذا المبلغ على الدعاية الانتخابية، غير أن الصباحى لم ينشر فى بداية الحملة إعلانا واحدا، وهو ما يجعلنا نستنتج أنه قرر صرف المبلغ فيما هو أهم.

إن القدرة على الإيحاء أمر معروف جيدا فى التحليل النفسى، هناك أشخاص قادرون على الإيحاء للآخرين على أن يفعلوا شيئا محددا فيفعلونه بغير تفكير أو مناقشة. هناك تقرير منشور فى جريدة ذات مصداقية عالية يوم الانتخابات، وقد استلفت نظرنا بشدة هذا التقرير، فى إحدى اللجان فوجئت اللجنة بكل الناخبين

يدلون بأصواتهم لصالح الصباحى،ولم يكن من حق أحد أن يسألهم لماذا، غير أن كاتبة الموضوع استطاعت أن تستدرج عددا كبيرا منهم فصارحوها بالحكاية، قال أولهم وكان استاذا فى المركز القومى للبحوث: لقد حلمت بشخص يرتدى أبيض فى أبيض ووجهه أبيض مثل اللبن الحليب جاءنى فى المنام وقال لى انتخب الصباحى.. لأنه سيعيد لمصر عزتها ووحدتها وكرامتها.. سيعيد إليكم الطربوش.

اتضح أن كل الناخبين رأوا نفس الحلم.

أنا أفهم أن يتمكن الصباحى بقوته الروحية من التأثير على لجنة الأحزاب فتعطيه حزبا ولكن كيف تمكن من دفع المصريين ليحلموا نفس الحلم؟ هذا هو السؤال الذى وقفت أمامه حائرا زمنا طويلا. وأخيرا أشرقت الإجابة فى عقلى، لقد استعان الصباحى بالنصف مليون جنيه لكى يحصل على الـ (Now how) من الجهات المتخصصة فى العالم كله فى علوم ما وراء الطبيعة ونجح فى مسعاه.

المهم أن الرجل بعد أن وصل للحكم صدق فيما عاهد المصريين عليه، كان قراره الجمهورى الأول هو لبس الطربوش لكل المصريين البالغين، وأعطاهم مهلة شهر للتنفيذ، استهتر عدد كبير من المصريين بهذا القرار، وقامت حركات احتجاجية كثيرة أشهرها حركة(مش حا نلبسه) غير أن الحكومة ردت عليهم بحركة مؤيدة وكان شعارها (حا تلبسوه يعنى حا تلبسوه) و تمكنت من خلال بعض الاجراءات العنيفة من إرغامهم على لبسه، فالمأذون لن يعقد قرانك، والمرور لن يعطيك الرخصة، والرادار على الطريق السريع سيلتقط صورة رأسك العارية، والسينمات والمسارح لن تسمح بدخولك، والكافتريات لن تسمح بجلوسك فيها ، والتاكسيات لن تسمح لك بالركوب، حتى محلات الفاست فود لن تقدم لك أى طعام بغير أن تكون مرتديا الطربوش، غير أن المعارضة استطاعت الحصول على استثناء واحد، هو أن المواطن من حقه ألا يرتدى

الطربوش على شاطئ البحر (فى حدود عشرين مترا من آخر موجه)

نزلت الصين إلى السوق المصرية بكل ثقلها، فظهرت طرابيش مجهزة داخليا بجهاز تكييف صغير دافئ وبارد، وأخرى رخيصة لها فتحات تهوية ومروحة بالبطارية، ثم كانت المفاجأة الكبرى عندما ظهرت طرابيش للأسرة مجهزة بكمبيوتر ولها أزرار على الجانبين، تضغط على زرار فيتحول إلى عمّة، وزرار آخر يحول الطربوش إلى طاقية ثم زرار يحوله إلى برنيطة شاطئ ثم زرار يحوله إلى طرحة .

عندما نتأمل هذه الشدة التى عانى منها المصريون فترة رئاسته الأولى، نكتشف أن الاستبداد عادة يحدث بدافع من الرغبة فى عمل الخير، أو ما يظنه بعض الناس خيرا، الرجل يرتدى الطربوش ويعرف أنه الوحيد على أرض مصر الذى يرتديه، وبدلا من أن يخلعه هو، يطلب من المصريين أن يلبسوه. ثقافة الحرية الفردية لم تلامسه ولم تطرأ على خياله، وهو عندما يعد المصريين بشئ فى حملته الانتخابية يقول لهم: أعدكم جميعا بأن ترتدوا الطربوش أسوة بى... ومن لم يفعل ذلك بالطبع يكون خارجا عن الأمة.

وكأن الرجل يقول للجميع: خدوا بالكم.. أنا لست جادا فى الحكاية من أولها لآخرها...

وأتساءل بينى وبين نفسى... هذا الرجل الذى أعترض على ملكيته لحزب.. وأعترض على قرار اللجنة التى أعطته الحزب، وأعترض على كلماته فى دعايته الانتخابية،... أليس من الجائز أنه أذكى المصريين جميعا؟ من منا لديه حزب ونصف مليون جنيه وطربوش؟

على العموم، أنا أتصور أن السؤال الإجبارى فى الأعوام القادمة وربما فى الشهور القادمة سيكون: متى يكون الحزب حزبا..؟



الوطن هو الحرية

صراع الحرب يمكن حسمه علي جبهة القتال وحدها بتدمير قوات العدو وعتاده عبر معارك لفرض شروط السلام عليه، أو التعرض لهزيمة ساحقة تدفعه للقبول بشروط السلام. غير أن الأصل في العلاقات بين الدول هو السياسة، لذلك كانت الحرب ممارسة للدبلوماسية بطرق أخري.

أما الصراع الحضاري فلا يمكن حسمه علي جبهة واحدة أو عدة جبهات، في معركة واحدة أو عدة معارك. لا توجد لحظة يقول فيها مجتمع أنه انتصر حضاريا علي مجتمع آخر، فصراع الحضارات مثل الزمن، متجدد ولا نهائي. وإذا كان صراع الحرب قد ينتج عنه منتصر ومهزوم غير أن الصراع الحضاري إذا سار بحرية في مساراته الطبيعية، ينتج عنه، منتصر ومنتصر، أو منتصر وأقل انتصاراً.

هذا هو ما نعنيه بصراع السلام، هو معركة يخوضها طرفان أو عدة أطراف مزقتهم الحرب من قبل وملأت قلوبهم الكراهية والخوف والفجيعة، ثم قرروا بدافع من اليأس أو الحكمة أن يواصلوا الحياة بأدوات الحياة نفسها وليس بمعدات الحرب. هو

صراع تخوضه الأطراف ليس في الصحراء أو الأدغال، بل في المعامل والمصانع والحقول وقاعات المحاضرات وفصول المدارس وقاعات البرلمانات وحروف الطباعة وشاشات السينما وخشبات المسارح وقاعات الموسيقي.

وإذا كان صراع الحرب يتطلب الانضباط الصارم من الجنود وكل قادة التشكيلات، غير أن صراع السلام يتطلب الحرية، قاعدته الحرية، وعتاده الحرية وجهاز إمداده وتموينه هو الحرية. غير أن الحرية نفسها ليست حرة، بمعني أنها مقيدة بقوانين طبيعية ليست من صنع البشر، مثل قانون الجاذبية الأرضية علي سبيل المثال الذي يمنع البشر من الطيران، ومع ذلك سنري أن الإنسان بحثا عن الحرية وتأكيدا لها حقق حلمه ورغبته في الطيران، ليس بالتمرد علي قانون الجاذبية ولكن بالتعامل معه والاستفادة منه هو وغيره من القوانين الطبيعية، هكذا حوّل الإنسان القانون الذي كان يعوق حريته إلي قانون يساعده علي الطيران، كان لابد أن يحقق حلمه في أن يطير مثل النسور.

وإذا كان للحرية سقف، فهو سقف واحد يسمي القانون والدستور وإلا اخترعت كل جماعة لنفسها سقفا ترغم به الآخرين علي الإنحناء إلي درجة الحبو علي أربع فيفقدون بذلك صورتهم البشرية. وحرية الإنسان تتحقق فقط في حال الفعل وليس في حالة الكلام، في حالة الحركة وليس السكون وحتي الخلاف والاختلاف في الأفكار - المؤدية للفعل - الذي يستدل به علي وجود الحرية، من المستحيل أن يحدث في حالة انعدام الفعل. وإذا تصورنا أن إنسانا يعيش بمفرده في جزيرة منعزلة، وهو ما يمكن اعتباره أعظم أجواء الحرية، حيث يتاح له أن يفعل

أي شيء بغير قيود، إذا تصورنا أن هذا الإنسان ينعم بالحرية فلا شك أن تصورنا خاطئ، فكل أفعاله لا صلة لها بالحرية، لأنها لن تنتج الفعل النامي الصالح له وللآخرين، لن يجد من يعارض أفعاله فلا أفعال له أصلا، إنها الحرية التي تتمتع بها حبات الرمل وذرات التراب. الحرية هي الفعل الذي نختلف - ويجب أن نختلف - بشأنه، في غياب الفعل، تغيب الحرية، والعكس صحيح. والفهم الشائع الذي يكاد يقصر الحرية علي جبهة الإبداع الفني، فهم قاصر، والسبب في شيوعه هم أصحاب الأقلام، فالحرية هي حرية الفعل في المجتمع ككل، وبالتالي هي حرية التعبير عما يعوق هذا الفعل. إلي الأبد سيكون من السهل علي المبدع أن يكتب إبداعاً متميزا، وإلي الأبد ستوجد طرق يفلت بها الإبداع من كل القيود ليصل إلي الناس، وعلي الرغم من كل جبروت الاتحاد السوفيتي، استطاع باسترناك أن يكتب روايته دكتور زيفاجو واستطاع سولجنستين أن يكتب كل أعماله، واستطاع المسرحي المصري الفريد فرج أن يكتب أجمل أعماله (حلاق بغداد) في معتقل داخل زنزانة. لا توجد طريقة علي الأرض تمنع المبدع من الإبداع، توجد فقط طرق لمنع وصول إبداعه إلي الناس، وهي ليست ناجحة دائما.

والقول بأن حرية التعبير مسموح بها في كل الأمور ما عدا قضايا الوطن العليا، فهو الطبعة الجديدة من الطبعة القديمة (الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب) فكل قضايا الوطن عليا جديرة بالنقاش حولها للوصول إلي أفضل حلول وصيغ لها. وحب الوطن ليس جواز مرور لترويع الناس وإخافتهم وتقسيمهم إلي أبطال وخونة، فلا يوجد علي أرض الوطن - أي

وطن ـ من يكرهه، ولكن يوجد من أحبوه بطريقة خاطئة، ألم يكن هتلر محبا للوطن؟ أورد هذا المثال الواضح لأبتعد عن ذكر نماذج من منطقتنا.

الوطن ليس فقط جبالا ووديانا وأنهارا، بل بشر تنظم حياتهم القوانين والدساتير والإجراءات، وعلي هؤلاء الذين يحبون وطنهم أن يحترموا قوانينه، الوطن هو الحرية.



حرق القلوب أكثر فأكثر

سأل المحقق واحدا من قتلة الدكتور فرج فودة، وهو مفكر مصرى ليبرالى تصدى بقوة لجماعات التطرف الدينى فى مصر، سأله: لماذا اخترتم ليلة العيد لقتله ؟

فأجاب: عشان نحرق قلب أهله عليه أكثر.

هذا هو بالضبط ما يريده المتطرف، أن يُشعر الآخرين بالألم (حرق القلب) أكثر فأكثر رداً على ما يشعر هو به من عذاب يعجز عن التعامل معه. وما قضاياه المعلنة وأطنان الكلمات التى ينطلقها أو يكتبها، سوى ساتر يخفى به إحساسه المؤلم بالعجز عن التوافق مع الحياة .

وإذا كان العزم على قدر العزائم، فمن الطبيعى أن يأتى الفعل على قدر التطرف. هناك من سيترك شحنة ناسفة فى حافلة أو مقهى، أو يطعن شيخا عظيما بسكين ثالمة فى رقبته كما حدث للأستاذ نجيب محفوظ، أو يمزق أجساد الأبرياء فى معبد فرعونى، أو يذبح أسرة من الفقراء فى الجزائر، أو يمتطى طائرة ليصطدم بها ببرجين كبيرين ليقتل أكبرعدد ممكن من البشر. وفى كل الأحوال هو يحقق هدفه وهو حرق القلوب.

تستطيع أيضا باطمئنان أن تضم إلى هؤلاء، المثقفين القتلة مع إيقاف التنفيذ الذين يكتفون بكتابة مقال أو بخطبة من فوق منبر أو بترديد كلمات (موضوعية) فى برنامج تليفزيونى يعلنون فيها إعجابهم الشديد (بالشيخ) أسامة بن لادن.

التطرف العقيدى أو الثورى أو السياسى، خلل عقلى لا يعفى من المسئولية. وهو قد يصيب الفرد أو الجماعة أو نظاما بأكمله. والمتطرف يرى الدنيا وقد انقسمت إلى قسمين: بلهاء جديرون بالاحتقار والعدوان، وأوغاد جديرون بالتحالف معهم. كل ماوصلت إليه البشرية من إنجاز علمى سيستفيد منه، أما الانجاز الفكرى المواكب له والمؤدى إليه من قيم إنسانية مثل الديموقراطية والحرية والشفافية والصدق وانعدام سوء الظن ومساعدة الغريب وحمايته وفكرة القانون والدستور والشرف الإنسانى...إلخ فليست أكثر من بلاهة لا تصيب إلا الحمقى الذين يستحقون العقاب. كل هذه القيم فى نظره وأولها شرف المواطنة والوطن، ليست أكثر من ثغرات سينفذ من خلالها إليهم محولا بذلك كل قيمهم وتقاليدهم إلى قلعة لوجستية تحميه هو وتحمى غزواته. أما البلهاء من أبناء عشيرته فسيتخذ منهم جنود وتلاميذ ومريدون ودافعو إتاوات.

وتحالفه مع الأوغاد فى أى مكان أو نظام ليس أكثر من تحصيل حاصل، نظرا لآليات التفكير المشتركة والمفردات المشتركة و وحدة الهدف وهو: حرق القلوب.

والمرء يحار فى فهم الفعل المتطرف، لأنه عندما تستخدم المنطق، يتحول على الفور إلى قيد على التفكير. أى أن الأداة الوحيدة المتاحة للبشر للفهم،وهى التفكير الصحيح، تصبح بذاتها العائق الوحيد الذى يحول دون الوصول إلى هذه الحقيقة. هذا هو ما يدركه المتطرف وينجح- غالبا- فى الإفلات من خلاله. هو متفوق

على البشر العاديين من هذه الناحية من حيث أنه شخصية سيكوباتية (إجرامية) قادرة على استيعاب آليات التفكير الصحيح ثم تجاوزها ليضرب ضربته. وكل زعماء الإرهاب المقيمين فى لندن الذين تصل إلينا أصواتهم عبر الأثير، قادرون على إكساب المراوغة قوة المنطق، وتحويل الشر الدفين إلى كلمات خير ظاهر. ولأنه يعرف أن المنطق سيكون سلاحا فى أيدى مطارديه لذلك سيحرص مقدما قبل كل فعل على توفير أكبرعدد ممكن من الأدلة (المنطقية) على براءته. ومن أشهرقوالب الكلام المنطقى، تلك الجملة الشهيرة: ماهى مصلحتى فى أن أسبب الأذى لبلد قدم لى الحماية والأمن والأمان؟

من أشهر الجمل التى يعرفها جيدا ضابط المباحث فى أى قسم شرطة، هى: أنا ؟... ماهى مصلحتى فى أن أفعل كذا؟

هذا هو مايفسر حيرة الناس بعد تفجير البرجين، هل نحن العرب قادرون على هذا الفعل الذى ينطوى على إبداع كبير؟

صاحب السؤال يتصور أننا (نحن) الذين قمنا بهذا العمل، الواقع أن الذى قام به عدد قليل منا يتسم بقدر عظيم من الشر. لابد من الاعتراف بأن آليات التفكير عند المتطرف الفعال، أى الإرهابى، إبداعية صرفة. أى أنها مماثلة تماما لعقل المبدع فى الفن والعلم ولكن من أجل الوصول إلى هدف مضاد، فإذا كانت آليات العقل عند المبدع، أى مبدع وكل مبدع، تعمل على الوصول إلى إنتاج يُشعر الآخرين وهم المتلقون بالثراء الفنى والبهجة، ويُشعره هو نفسه بالخلود، فالهدف عند المتطرف هو الوصول إلى الفعل (الإنتاج) الذى يُشعر الآخرين بالضياع والفناء، ويحقق له هو نفسه ما يصبو إليه وهو العدم. الآليات واحدة عند كليهما، الفكرة الجديدة ثم الجهد الشاق فى إخراجها إلى الوجود فى إتقان يدعو

إلى الدهشة . ومن بين الأسئلة الأخرى التى تدل على جهل كبير بالشخصية السيكوباتية ذلك السؤال الذى يقول: لماذا اتهام أسامة بن لادن بهذه الاتهامات البشعة؟ الرجل غنى جدا، وكان باستطاعته بفلوسه أن يستمتع بكل ملذات الحياة وطيباتها، ولكنه فضل حياة الورع والتقوى.

لا بأمواله ولا بأموال قارون يستطيع أسامة بن لادن الاستمتاع بأى شئ من معطيات الحياة لعجزه عن ذلك مما يجعلها عبئا ثقيلا عليه وعلى أمثاله. الحياة تطارده بقوتها وجمالها وجلالها، فكان لابد أن يرحل بعيدا عنها إلى المكان الوحيد الذى يخلو منها ،من الحياة. ولو كان باستطاعته العودة إلى الوراء مئات أو آلاف أو ملايين الملايين من السنين ليعود خلية واحدة، لفعل هربا من الحياة. هو لم يفضل حياة الورع والتقوى كما يحلو للبعض أن يتصور، فالأمر المؤكد أنه لو كانت توجد فى قلبه أو ثنايا عقله ذرة خير واحدة، لصنع منها جسرا يمشى عليه ليحيا مع البشر، ويشترك معهم فى الاهتمام بهذه الحياة لجعلها أكثر عدلا وجمالا وخيرا.



الظاهرة المرضية.. والإبداع

كنا فرسي رهان في المسرح وقال عنا الناقد الكبير الدكتور لويس عوض: فلان وفلان ليسا من كتاب الستينيات، ولكنهما لحقا بهم. بالفعل كنا في سنوات قليلة قد تقدمنا الصفوف ووقفنا علي خط سبق واحد مع كتاب للمسرح أكثر رسوخا في الأذهان. كان زميلي إلي جوار الكتابة المسرحية يعمل قاضيا، وكانت مسرحياته بالفعل تتميز ببناء عقلي صارم وجاد بينما كان البناء عندي أقرب للفانتازيا. كان وجوده يشعرني بالحماس والرغبة في المنافسة الجميلة، ما أجمل أن تجري في سباق وهناك من يلتصق كتفه بكتفك، ولم تمض السنوات في طريقها الذي تخيلناه لها، انهار العالم الذي نعرفه وحدثت تقلبات حادة في السياسة كان لها أثرها العنيف في المجتمع وبالتالي علي المسرح. الالتزام الذي عرفناه في المسرح لم يعد له وجود فتبعثرنا في كل اتجاه، وعمل زميلي في مجال السينما، ولك أن تتصور حجم العذاب الذي يعانيه قاض محترم وكاتب مسرحي جاد عندما يقعان أسيرين في قبضة السينمائيين.. وذات ليلة بعد منتصف الليل، طرق طارق باب الأستاذ الناقد رجاء النقاش ففتح الباب ليجد زميلي الذي قال له

وهو يرتجف فزعا: الملائكة تطاردني.. لقد تمكنت من الإفلات منهم.. أرجوك.. خبئني.

وبدأت رحلة المرض التي انتهت بوفاته بعد أعوام قليلة.

فما هي حكاية المرض النفسي والعقلي مع المبدعين؟ هل المرض كامن بداخلهم ينتظر فرصة ليخرج، أو لينفجر كنيران البراكين؟ وهل هو كامن في كل المبدعين، أم في بعضهم فقط، وهل توجد طريقة للوقاية منه؟ شغلتني هذه الأسئلة طويلا وأفزعتني أيضا، ففي الوسط الفني والأدبي عرفت حالات أخري لأشخاص كانوا قبل سقوطهم فريسة للمرض في منتهي الصحة النفسية، أو علي الأقل هذا ماكان يبدو للجميع، ماهي الآليات التي حدثت داخل عقل زميلي؟ وهل يوجد احتمال أن تحدث لي؟

هكذا بدا اهتمامي بآليات الإبداع في عقول المبدعين (للمهتمين،اقرأ Dynamics OF Creation Anthony storr')

إذا كنت قد اخترت هذا المفكر بالتحديد، فلسبب بسيط هو أنني أوافقه تماما علي ما انتهي إليه، وهو أن كل المبدعين في مجالي الفن والعلم ليسوا مرضي، ولكنهم مهددون بالمرض. لا تفهمني خطأ ،هم ليسوا حالات مرضية، ولكنهم يعانون تهديدا قويا بالمرض. وبذلك يكون استغراقهم في العمل المبدع ليس أكثر من عملية مقاومة لذلك التهديد، مقاومة تقوم بها (الذات Ego) في مواجهة زحف المرض عليها.

وبقدر قوة الذات تكون المقاومة ويكون الإبداع. العمل الفني ليس طبيعيا في النشاط البشري، أمر عسير علي الإفهام أن يعزل شخص ما نفسه في حجرة مغلقة لشهور طويلة أو لسنوات يكتب

فيها رواية لا يعرف هل سيتمكن من نشرها أم لا.. هل ستلاقي استحسانا أم لا.. أمر غير طبيعي أن يجلس عالم في معمله أعواما ليجري تجارب قد لا يكتب لها النجاح في كل الأحوال، أمر غير طبيعي أن ينشغل إنسان عاقل بتفاحة سقطت من شجرة ويتساءل: لماذا لم تسقط إلي أعلي؟.. لماذا سقطت علي الأرض؟ ثم ينشغل بالتفكير في ذلك ليل نهار إلي أن يكتشف قانون الجاذبية.

لذلك لا أشعر بالدهشة عندما أسمع عن مبدع كتب عمله في ظروف غير محتملة، هل تصدق أن كاتبا مسرحيا هو الأستاذ ألفريد فرج، يجلس في زنزانة في معتقل، في ظروف مخيفة ثم ينشغل بكتابة مسرحية؟.. بدون أوراق، وبدون قلم،لقد أخذ يرتب في ذهنه الفصول والشخصيات والمشاهد وجمل الحوار، ثم أخذ يستعيدها حتي تمكن منها، لقد أرغم عقله علي أن يتحول (لديسك) بشري، احتفظ بالمسرحية عليه إلي أن أتيحت له فرصة الحصول علي أوراق وقلم، كان بالفعل في حالة حرب في مواجهة جيوش المرض النفسي الزاحفة عليه، وكانت وسيلته الوحيدة لإيقافها هي.. الإبداع.

وروائي عظيم، هو نجيب محفوظ، لم يعد في حاجة للشهرة ولا إلي اعتراف الآخرين، مرت به ظروف قاسية، أعجزت أصابعه عن الإمساك بالقلم بعد قطع عصب في الذراع، كما أن درجة الإبصار لديه ضعيفة للغاية، ومع ذلك خاض تجربة فريدة ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، وشهراً بعد شهر أخذ يتدرب علي الإمساك بالقلم بكل الكف، ثم أخذ يدرب عقله علي تأليف قصة غاية في القصر، ثم يحفظ كلماتها جيدا ثم يصبها مرة واحدة علي الورق. لأنه لا يري ما يكتبه وبالتالي سيعجز عن مراجعة أي خطأ.. هذا المثال

يعـد من أروع الأمـثلة علي قـوة الذات وهـي تخـوض حـربهـا ضـد التهديد بالمرض النفسي، وبذلك يكون الإبداع هو الوسيلة الوحيدة عند الفنان لتحقيق التوازن النفسي، كما يترتب علي ذلك أيضا، أن ينهار المبدع عندما يتوقف عن الإبداع.

والأمـراض النفسـيـة عديدة، ومتشـعبـة، ومتداخلة في بعضـهـا البعض، فمـا هـى الأمـراض التي نقصدهـا؟ لنبدأ باستبعـاد كلمـة المرض، ولنستخـدم كلمـة (النمط)، هـناك ثلاثة أنماط نفسـيـة لن يفلت منها المبدع في الفن والعلم، الأول هو النمط الفصامي، الثاني النمط الاكتئـابي، الثالث النمط الوسـواسي. ولـكنهـا جـمـيعـا ـ في وجود الإبداع ـ لن تتحـول إلي حالة مرضيـة. ولكنك حتي في وجود الإبداع تستطيع بسهولة التعرف علي نوعية النمط الموجود أمامك من خـلال شـواهد بسـيطة لا تلفت النظر، طبـعـا سـتـسـألني: وسيادتك..؟ أي نمط فيهم؟

أنا يا صديقي من النوع الإكتـئـابي، ولا تتـصـور أن ذلك أمـر بسيط، أو أنه زكام نفسي، بل هو خطـر للغـاية، وفي أحيـان كثيـرة يكون السقوط فريسة للاكتئاب سببا مباشرا للتخلص من النفس، ولعل أشـهـر مـثـال علي ذلك هـو الروائي الأمـريكي إيرنست هيمنجواي.

في حـالة الوسـاوس، متي تكون الظاهرة طبـيعـيـة، ومـتي تكون مـرضـيـة؟ أنت خـرجت من الشـقة، وفي منتـصف السلم، تتسـاءل فجأة: هل أنا أغلقت البوتاجاز؟.. أنت (لا تذكر) إن كنت قد أغلقته أم لا.. هذا طبـيعي، أمـا إذا كنت (تذكـر) بالفعل أنك أغلقتـه، ومع ذلك تشـعر برغـبـة جـارفة أنت عـاجـز عن مـقاومتـهـا في أن تـعود

وتغلقه مرة أخري، فالحالة هنا تثير القلق ولابد من استشارة طبيب.

من الأقوال المشهورة في التحليل النفسي، أن المعرفة في حد ذاتها لا تشفي، هذا صحيح، غير أنه من المؤكد أن فهمنا لآليات العقل وإن كان لا يفيدنا، إلا أنه يساعدنا علي التعامل بفهم أكثر مع أنفسنا، كما أنه يجعلنا نفهم علي نحو أفضل الدوافع الحقيقية عند بعض الكتاب والمفكرين (الزعماء) الذين يريدون طول الوقت جنازة يشبعون فيها لطماً.

أنتقل الآن إلى النمط الفصامى، كل المعارك التي تدور خارج النفس البشرية أو داخلها، لابد من وجود آثار لها تدل علي حدوثها، فعلي أرض المعركة، سنتعرف علي عنفوانها من حجم الخسائر التي سببتها ومن الدمار التي خلفته. وبالنسبة للمعارك التي تدور داخل النفس، لا أحد قادرا علي إخفاء ما يعانيه من قلق أو هم أو صراع. وعندما نقول إن عمليات الإبداع هي في جوهرها صراع بين الذات من ناحية وبين التهديد بالمرض النفسي في ناحية أخري فمعني ذلك أننا نعترف بحدوث معركة داخل النفس تدور رحاها بعيداً عن الوعى، تري.. ما الآثار الدالة علي حدوث تلك المعركة؟

إن أهم ما يميز حالة الفصام هو رعب صاحبها من الدنيا. طبعا المتخصصون في الطب النفسي سيقرأون كلماتي ويبتسمون إشفاقا، إنني أعتذر لهم مقدما، لافتا نظرهم إلي أنني أكتب لقاريء يبحث عن المعرفة وأيضا عن التسلية من خلال قراءة سهلة. الآخر بالنسبة للفصامي هو الجحيم بعينه، هو العدو الحقيقي أو المحتمل، كل من حوله يتآمرون ضده، هذه الابتسامة التي تبادلتها

عمته مع زوجته تعني أنهما يتآمران ضده، هذه الحركة التي قام بها زميله في المكتب ليست بريئة، أو عفوية، بالتأكيد وراءها ما وراءها، هو منشغل في كل لحظة بالدفاع عن نفسه ضد خطر يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه موجود وبذلك يفقد القدرة كلية علي الحب والعمل. عندما تغيب هاتان الصفتان عن أي مخلوق، نتعرف بشكل مؤكد علي وجود المرض.

ننتقل الآن من الفصام كمرض.. إليه كنمط، سنجد النمط الفصامي بين المبدعين في الفن والعلم. ليس عاجزاً عن العمل، بل لعله يعمل أكثر من اللازم، غير أن دائرة الحب عنده ضيقة للغاية، ولكنها موجودة، هو يبدع تأليفا وإخراجا وتلحينا وعلما، هذا الإبداع نفسه هو الدلالة الوحيدة علي أن الذات عنده تخوض حربا حقيقية ضد التهديد بالمرض، وبما أنه عاجز عن القضاء علي التهديد كلية، لأنه طاقة قادمة من مكان ما في العقل والطاقة لا تفني، أي لا تتحول للاشيء، فلا يوجد علي الأرض ما يسمي باللاشيء، ولكن الطاقة قابلة للتحول، وهذا ما ينجح فيه، يحول التهديد بالمرض إلي مظاهر أخري، تبدو طبيعية ومقبولة من الناس. الرعب من الآخرين يتحول إلي تعال عليهم وابتعاد عنهم، تحت ستار من الكبرياء الشخصي المبالغ فيه، ستلاحظ أيضا اهتمامه المبالغ فيه بأناقته وكأنه يقيم بملابسه جدارا عازلا بينه وبين الآخرين، وفي حالة الكتاب ستتعرف على هذا النمط بسهولة من خلال حالة الرعب من الآخرين التي تشيع في أفكاره وكتاباته (العالم كله ضدنا لأننا الأعظم، العالم كله تحكمه طغمة من السفلة الأوغاد وعلينا أن نحمي أنفسنا منهم، أى تقدم عند الآخرين مؤامرة مقصودة لإشعارنا بالتخلف تمهيداً للقضاء علينا.. أنا

أعظم منكم جميعا، وإذا كنتم لم تكتشفوا ذلك حتي الآن، فلأنكم جهلة حاقدون، أناعلي يقين مما أقول، فعظمتي تتيح لي اكتشاف الحقيقة أما أعدائي فهم مأجورون وخونة.. وأولاد ستين في سبعين) من الطريف أن هذا النمط لديه قدرة هائلة علي التحول إلي قط أليف في وجود الأقوياء، غير أنه نمر في مواجهة الضعفاء اجتماعيا. الأقوياء في السلطة بالنسبة له هم نمور شرسة علي وشك إفتراسه لذلك لابد من الرقة معهم وإظهار الضعف لهم،والضعفاء أيضا أوغاد يتحينون الفرصة ليتحولوا إلي تماسيح ملتهمة لذلك لابد من قمعهم والتعالي عليهم وافتراسهم إن أمكن.

هذا النمط أو النموذج يشعرك بالصدمة عندما تقترب منه لا تصدق أنه ذات الشخص الذي أبدع هذا اللحن الجميل أو كتب هذه الرواية المبدعة أو تلك القصيدة العذبة، وهو أيضا الأقرب للسقوط في هوة المرض عندما تتغير الظروف اجتماعيا وسياسيا ويترتب علي ذلك فقدانه لمكانه ومكانته.

وإذا كان الموسيقي أو العالم من أصحاب هذا النمط الفصامي، قادراً علي استعادة توازنه النفسي من خلال العمل المبدع، الذي يعتبر بمثابة جسر قوي يربطه بالآخرين ويشعرهم بوجوده، إلا أنه يظل مبتعداً عنهم، سنلاحظ ذلك في واحد من أعظم الملحنين المصريين، رياض السنباطي لم يكن يدلي بأحاديث للصحافة، لا يسهر خارج منزله، لا يحضر الاحتفالات والمناسبات العامة، دائرة معارفه ضيقة للغاية، هو منشغل طول الوقت بالإبداع، بمعني أدق منشغل بالقتال ضد التهديد بالمرض. هكذا يظل صحيح النفس والعقل.

أما في حالة الكتاب فالأمر يختلف فالكتابة في حد ذاتها تتيح لك أن تصب كراهيتك للعالم ورعبك منه في الكلمات، وبذكائك - معظمهم أذكياء - تستطيع أن توهم الآخرين أنك تقودهم إلي الصالح العام وهو أن يشعروا مثلك بالضعف والخوف والرعب من كل شيء، هكذا تجتذب كل أصحاب النمط المرضي المشابه، فتصبح بينهم معلما وزعيما .. كل العجزة والخائفين، والفاشلين، سيكونون مريدين لك.

تحدث الكارثة الحقيقية، عندما يتسلل أصحاب هذا النمط من الكتاب إلي مراكز صنع القرار، كل تحليلاتهم المرفوعة لقياداتهم السياسية لن يترتب عليها - إذا أخذت بها - سوي القضاء علي كل ما هو قوي وجميل، وما يتبع ذلك من إشاعة المزيد من التوتر والضعف في المجتمع كله. سينشغلون ويشغلون السلطة معهم بقلب كل حجر بحثا عن مؤامرة تحته، ولأن الآخرين بالنسبة لهم أوغاد، لذلك ستراهم منشغلين طول الوقت بصنع المعارك الوهمية معهم، خصوصا الحلفاء منهم، من البديهي أنهم لن يهتموا بالأعداء، فالدنيا كلها أعداء، الأمر العبقري هو أن يكتشفوا دلائل وأدلة علي تآمر الحلفاء، هكذا ينجحون بعد مجهود شاق ومبدع فى تحويل الأصدقاء إلي أعداء، ليقولوا بعد ذلك بثقة: ألم نقل لكم أن أصدقاءنا وحلفاءنا أيضا أوغاد، هم يساعدوننا لهدف خبيث، لابد أن ينتهي بالقضاء علينا.

وهم في ذلك كله لا يخدعون أنفسهم، هم صادقون تماما مع أنفسهم فالأصل عند أصحاب هذا النمط هو أن الآخرين كل الآخرين، أوغاد، وأن الأمور لا تؤخذ بظواهرها، وأنه لا يوجد علي الأرض من هو حسن النية، وأنه لا توجد بين الناس مصالح

مشتركة، توجد فقط مصالح للآخرين لن تتحقق إلا بتدميرنا.

أنتقل معك الآن خطوة أخرى إلى أخطر ما ينتاب المبدع، وهو الوساوس، الوسواس القهري.. مرض مؤلم، أن ترغم بقوة قاهرة بداخلك علي أن تغسل يديك عشرين مرة، أو تتوضأ عشرات المرات، أو تعود إلي الشقة خمس مرات، لتتأكد أنك أغلقت الباب، هذه بعض أعراض المرض، أما في حالة النمط، أي المبدع الموسوس، فلعل أشهر حالة مشهورة في المنطقة العربية، هي الأستاذ محمد عبدالوهاب رحمه الله، كان يغسل يديه بالكولونيا عقب مصافحة أي مخلوق، ويقال عنه على سبيل التندر ، إنه كان يرفض الحديث في التليفون مع أي شخص مصاب بالبرد، حتي لا تنتقل إليه العدوي عبر الأسلاك.

بقوة النفس، يحول المبدع من أصحاب هذا النمط التهديد بالمرض إلي (طقوس) حياتية يومية، مقبولة له، ومقبولة من الجميع، بل تدعو للاحترام والإعجاب، المكان الذي يجلس فيه لا يغيره، التزامه بمواعيد محددة لكل شيء، المشروب الثابت الذي يتناوله، نوعية الأقلام التي يستعملها، نوعية الورق الذي يستخدمه، بهذا الثبات في ممارسة هذه العادات، يتم تجريد الظاهرة المرضية من أسلحتها الفتاكة، فتتحول إلي طقوس تحقق للمبدع توازنه النفسي.

أما أشهر نماذج هذا النمط علي الإطلاق، فهو أعظم روائي عربي (نجيب محفوظ) يخرج من بيته في السابعة صباحا، يمشي علي النيل في طريق ثابت إلي ميدان التحرير، ليجلس في مقهي علي بابا، علي نفس المقعد بجوار النافذة، وبعد ساعة يمشي إلي

مكتبه في جريدة الأهرام، ثم يعود إلي البيت، يتناول طعام الغداء ثم ينام، ليستيقظ ويجلس إلي مكتبه في لحظة محددة ليكتب.

وتغيرت الظروف بما يجعل ممارسة هذه الطقوس أمرا مستحيلا، فحلت محلها طقوس أخري، في السادسة مساء بالضبط يوم الأحد تأخذه السيارة إلي مكان يجلس فيه مع تلامذته وأصدقائه، علي الفور يبدأ في ارتشاف رشفة واحدة من فنجان القهوة، بعدها يبدأ في تدخين سيجارته الأولي، بعد ساعة بالضبط لا أكثر ولا أقل، يحصل علي الرشفة الثانية، ويشعل السيجارة الثانية، بعد ساعة أخري يأخذ الرشفة الثالثة وبعدها السيجارة الثالثة والأخيرة، لينصرف في التاسعة والنصف تماما، لتبدأ الدورة مرة أخري يوم الأثنين في مكان آخر، والثلاثاء في مكان ثالث، والأربعاء في مكان رابع، هذه الجلسات يحضرها بشر من كل الاتجاهات الفكرية، وبغير أجندة.. كل المواضيع الضاغطة علي عقول البشر مطروحة للنقاش، أما الخميس فهو مخصص لأصدقائه القدامي الذين لا يعملون في حقل الثقافة، هذا الثبات في ممارسة العادة سابق علي احترافه الكتابة، وعندما تلقي نظرة علي صباه تكتشف نفس الثبات، فعندما كان طالبا في المدرسة الثانوية، كانت له طقوسه أيضا، هو وأصحابه، في مساء كل يوم خميس كانوا يتجمعون في مقهي عرابي في العباسية ثم ينتقلون إلي ميدان العتبة، ليتناولوا طعام العشاء في مطعم ألفي بك، وهو الكباب في كل مرة، ثم يحضرون حفل غناء أم كلثوم، إذا كان الخميس الأول في الشهر أو مشاهدة مسرحية للريحاني. بعد انتهاء المسرحية، لا تكون الليلة قد انتهت، مازال ينقصها عنصر مهم هو الفرفشة فيذهبون إلي حي قريب من أحياء القاهرة

مخصص لذلك، ثم يعودون بعد منتصف الليل إلي ميدان العتبة لركوب الترام إلي بيوتهم، لا توجد مواصلات بالطبع في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكن يوجد موقف للحمير فيمتطي كل واحد منهم حماراً (يبرطعون) بها وهم في حالة عالية من الإنسجام والضحك والفرفشة. ما أجمل أن تعود إلي بيتك في عاصمة كبري راكبا حمارا قبل الفجر بقليل.

ماذا عن الأوقات الصعبة التي تتطلب تغييرا في العادات؟ الامتحانات مثلا، من المعروف أن الإنسان عند الامتحان - الذي يكرم فيه المرء أو يهان - يشعر بقدر من الرعب، وبقدر أعلي من الاحتياج للوقت، فيحبس نفسه في غرفته قبل الامتحان بأيام أو أسابيع، ولا يمارس شيئا من حياته العادية، لا يفعل شيئا سوي أن يذاكر. بالنسبة لنجيب محفوظ كانت صرامة العادة لديه أقوي من خوفه من الامتحان، فقبل الامتحان بثلاثة أيام سنجده يلعب مباراة كرة قدم يوم الأربعاء، ويحضر حفل أم كلثوم يوم الخميس، ويحضر عرض الريحاني يوم الجمعة، ويذهب للامتحان في يوم السبت.

كل ما تراه من عادات صارمة للمبدعين، ليس سوي محصلة الصراع بين الذات، وبين التهديد بالمرض النفسي، وهو الوسواس القهري في هذه الحالة. هذا النوع من المبدعين يتميز بغزارة الإنتاج وأعلي درجات الأتقان والإجادة. وهم علي المستوي الشخصي يضحون بأية مكاسب من أجل ألا يشغلهم شيء عن الإبداع، مهما كانت خسارتهم المادية. لنفرض أن شخصا تعدي علي حقوقهم الفكرية، ستراهم يحاولون الحصول عليها في لطف ورفق، وعندما يتطلب الأمر الدخول في خصومة تسبب لهم عكننة وتعكيرا للمزاج فهم يرحبون بخسارة قضيتهم علي الفور، لأن الإنشغال بغير الإبداع

يفقدهم توازنهم النفسي وهو ما يحرصون عليه كل الحرص. وخصوم الإبداع والمبدعين، يدركون علي نحو غريزي، أن العكننة والسخافة والاستنطاع، هي أعدي أعداء المبدع الممتاز، لذلك يجرونه بكل الطرق، بعيداً عن بيئته الطبيعية، التي يمارس فيها عاداته المؤدية للإبداع.

بعيداً عن الإبداع الفني، يوجد قدر من الإبداع في كل عمل وكل مهنة، مهما صغر شأنها، وبذلك يكون الإتقان في العمل في أي مهنة هو الوسيلة الوحيدة لمقاومة المرض النفسي، والمجتمعات التي تتنكر للإتقان أولا تمجده أو لا تكافيء أصحابه، أو تعاقبهم، فهي بالتأكيد في حاجة لأكبر كونسلتو في الطب النفسي علي وجه الأرض.

قد تسأل نفسك: هل أنا شخص طبيعي؟

الإجابة: لا يوجد علي الأرض ما يسمي بالشخص الطبيعي، لابد من لطشة ما، ولكنك صحيح النفس عندما تكون لديك القدرة علي العمل، وعلي أن تحب من حولك.. وما حولك.



القسوة .. والإبداع

نيرون هو أشهر اسم حاكم روماني علي الإطلاق، ليس لما قام به من أعمال جليلة، ولكن لقسوته الزائدة وجنونه المطبق.
وهناك حكايات كثيرة تروي عنه لا أحد علي وجه التحديد يؤكد هل هي حقيقة أم من تأليف خصومه، غير أنه من الثابت عند كل المؤرخين أنه أحرق أحياء كثيرة في روما، كما قتل عددا كبيرا من خصومه السياسيين ومن أصدقائه، كما قتل ـ وهو أمر مفزع حقا ـ والدته. يقال إنه عندما أرسل مجموعة من الجنود لتقتل أمه، صاحت فيهم وهي تشير إلي بطنها: هنا.. اضربوا هنا.. في الرحم.. هذا الرحم الذي أنجب هذا القاتل المجنون.

كما قيل إنه وقف في شرفة قصره يشاهد حريق روما وهو يعزف علي قيثارته ويغني أغنية من تأليفه وتلحينه، يغنيها باكيا، هناك أيضا واقعة مخجلة للفلسفة والفلاسفة في قصة هذا الرجل، كان "سنكا" الفيلسوف الروماني العظيم هو مستشاره الشخصي، ولأن النار تحرق كل من يقترب منها، قرر نيرون أن يقتله، فأرسل له زجاجة السم، مصدرا له أمره الأمبراطوري أن يشربه. وهو فيما يبدو كان إجراء عاديا في ذلك الوقت.

تناول "سنكا" السم البطئ، ولكي تصل قساوة نيرون إلي أعلي سقف لها، جاء يزور سنكا وهو يحتضر، فقال له الأخير بهدوء ووقار الفلاسفة: اسمع يا عزيزي نيرون.. أنا أغفر لك أنك قتلت عددا كبيرا من الناس، وأغفر لك أنك قتلتني.. وأغفر لك أنك قتلت أمك.. وأنك أحرقت روما.. ولكني لن أغفر لك عدوانك علي الفن.. أنت كتبت أشعارا وقمت بتلحينها وعزفتها وغنيتها.. هذا عدوان مروع علي الفن لن أغفره لك.

قال ذلك ومات..

لست متأكدا من صدق هذه الواقعة، ولكن حتي عندما تكون من نسج الخيال الشعبي علي مر العصور، فلابد أنها تشير إلي شيء حقيقي وهو أن العدوان علي الفن جريمة مستحيلة الغفران، وهي تشير أيضا إلي حقيقة أن المعتدين علي الفن ليسوا دائما من خصومه.. ليسوا من المعسكر المضاد، بل هم أحيانا من بين أفراد معسكره. ومن العاملين في حقله، تعال نقوم بتحليل المشهد السابق لعناصره الأولية، سنجدها ، نيرانا مشتعلة وأحياء تحترق، بشرا يهيمون علي وجوههم فى الشوارع، ثم شخصا يغني ويعزف ويبكي. قد يكون نيرون شاعرا رديئا، أو مغنيا وملحنا قليل القيمة، ليست هذه هي المأساة، المأساة هي أنه يمارس فنه علي أشلاء الآخرين، ألا تشير هذه الحكاية الطريفة إلي أن هناك من بين أصحاب المواهب الضعيفة، من يحمل بين جوانحه قدراً هائلا من القسوة؟ وهل معني ذلك أن هناك مبدعين ، بغض النظر عن مستوي إبداعهم ، يشعرون برغبة قوية في تعذيب الآخرين؟

الإجابة مهما بدت غريبة لك: نعم.

أعرف عددا من مخرجي المسرح همهم الأول أثناء التدريبات، هو تعذيب الممثلين والكومبارس وعمال المسرح، تحت غطاء أنهم

يحلمون بالكمال في الفن بينما هم تلاميذ مخلصون لمدرسة (التعذيب في الإخراج المسرحي) يحدث الأمر نفسه، أو كان يحدث في السينما، عندما كانت مساحة الحركة المتاحة أمام الممثل رزقا وعملا ضيقة للغاية، وبالتالي كان عليه أن يتحمل المعاملة الرديئة بوصفها قدرا فنيا، وعندما يكف المخرج عن تعذيب العاملين معه لأسباب خارجة عن إرادته، كأن يخشى أن يتركوه مثلا، فليس معني ذلك أن طاقة الرغبة في تعذيب الآخرين بداخله لم يعد لها وجود، هي موجودة، ولكنها ستنصب في هذه الحالة علي المتفرجين. أقسم أنني شاهدت أعمالا مسرحية وأفلاما لا تفسير لقبحها ورداءتها إلا رغبة صناعها فى أن يسببوا للمتفرج أكبر قدر من العذاب والنكد. من الطريف أنك عندما تقابل هذا النوع من المخرجين - قبل العمل معهم - فستجدهم دمثي الخلق، رقيقي الحاشية، ظرفاء، ينضح الشهد والعسل من مسامهم.. وعندما تعمل معهم تفاجأ بالعفاريت الزرق والحمر وهي تقفز خارجة تتطط من أفواههم وعيونهم، مصداقا للمثل الشعبي الشهير: تعرف فلان؟.. أعرفه.. عاشرته؟.. لأ.. تبقي ما تعرفوش.

لقد حيرتني هذه الظاهرة طويلا، وتصورت أن المسرح في مصر بدأ علي أيدي مجموعة من المرضي القساة، وأن الأجيال التالية لهم تحاكيهم وتترسم خطاهم، غير أنني بعد قراءات طويلة في آليات الإبداع الفني والعلمي في العقل البشري أيقنت أن تلك الظاهرة لا صلة لها بالمحاكاة والتقليد.. هناك فنانون بالفعل في كل مكان وكل زمان يتسمون بقدر من القسوة لا يمكن تصوره، والقسوة عندما تتجاوز الحدود نسميها , السادية, نسبة إلي المركيز دي صاد. وهو رجل ينتمي لأسرة كبيرة في فرنسا، وكان يحتل مكانة مرموقة في القرن الثامن عشر، كان يغري بعض النسوة بالذهاب معه إلي

قصره، وهناك يضربهن بالكرابيج، ولا يكتفي بذلك،بل كان يضع الملح في جروحهن للمزيد من الاستمتاع بصرخاتهن. وكانت أسرته تتدخل بما لها من نفوذ وأموال لإرضاء الضحايا ومنعهن من إبلاغ الشرطة، وفي النهاية تم حبسه في مستشفي للأمراض العقلية، إلي هنا والقصة مفهومة.. شخص مجرم يمارس الجريمة، أما الأمر الغريب حقا، فهو أن المركيز دي صاد كان يؤلف ويخرج للمسرح، أي أنه كان للأسف، مبدعاً مسرحياً، وفي مستشفي الأمراض العقلية، أخذ يمارس الإبداع فكون فرقة من المرضي وقدم عروضا مسرحية داخل المستشفي. هذه الوقائع تحولت بعد مئات السنين إلى المادة الخام التى شكّل منها بيتر فايس مسرحيته الشهيرة (مارا - صاد) هل جربت من قبل أن تقترب من أحد الفنانين، الذي يتسم إنتاجه بالجمال والرقة ثم اكتشفت فجأة أنه شخص فظ لا يطاق؟



صديق محصن ضد الرضا

فكرت فى عـلاقـتى بـه طويلا، وراجـعت نفـسـى مـرارا، وخلصت إلى أن الأمر المؤكد هو أنه غاضب علىّ أشد الغضب أما الأمـر المؤسف فهو أننى فشلت فى التعـرف على سبب غضبه. قلت له ذات يوم: هـناك أمـر يؤلمك منى، ويطبع عـلاقـتنا بطابع سـيئ ، لابد أننى قـد أخطأت فى حـقك خطأ شنيـعـا بغـيـر أن أتنبـه، أرجــوك.. افــتح لى قلبك وصـــارحنى بما تشكو منه، وأنا على استعداد للاعتذار وتقديم الترضية الكافية لك.

فنظر إلىّ فى استنكار وقال: لم تعرف حتى الآن ما فعلته بى؟

أجبته بصدق: لا والله..

فأشاح بوجهه وهو يقول: إذا لم تكن حتى الآن قد اكتشفت ما فعلته بى، فلا فائدة من مصارحتك به.

أنا شـخص صـبـور، وأكـره أن أكون سـبـبـا فى ألم أى إنسـان أو ضيقـه، لذلك اتخذت قـرارا بـأن أسـترضيـه بكل الطرق مسـتـعينا بإمكاناتى الواسـعـة وثروتى الكبيـرة التى حبانى بها الله. دعوته إلى

تناول طعام الغداء فوافق فبالرغم من علاقتنا المتوترة إلا أنه يلبى كل الدعوات من هذا النوع . وفى مطعم كبابجى شهير سألته ماذا يريد أن يأكل فأجاب فى ضجر: أى حاجة.

طلبت له كبابا وكفتة وطاجن تورلى وورق عنب محشى وطبق ملوخية وطبق أرز وطبق مكرونة فرن وطقم سلطات فأجهز على كل ذلك مستعينا بشفشق عصير ليمون، أما التحلية فكانت طاجن أم على بالمكسرات ثم ختم ذلك كله بفنجان من القهوة. انتقلت معه إلى كافيتريا فندق فخم على النيل فطلب قطعتى جاتوه وشايا وشيشة. كان فى حالة مزاجية رائعة أو أقل قليلا، فتح لى قلبه وقال بغير انفعال: أنا أعرف هدفك من دعوتك الباذخة.. أنت تريد أن تبدو أمامى كريما ولكنى أعرف دوافعك الحقيقية.. أنت تريدنى أن أنسى الجائعين فى بقية أنحاء الأرض وخصوصا فى النيجر ودارفور وباقى أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء..تريدنى أن أنسى فقراء مصر.. لماذا كل هذا السفه والبذخ فى كمية الطعام الذى طلبته لى وأرغمتنى على تناوله منعا لإحراجك فى المطعم بين الناس بينما اكتفيت أنت بتناول قطعة لحم وطبق سلاطة.. أنت تريدنى ألا أنشغل بجوع الجائعين وفقر الفقراء ولكن اطمئن.. لا كبابك، ولا أرزك أو خضارك، ولا أفخم طواجن أم على فى العالم كله بقادرة على أن تنسينى ذلك.

اعتذرت له بشدة عن ذلك الخطأ غير المقصود ولم يبدُ عليه أنه قبل اعتذارى. قلت لك إننى شخص صبور وأضيف أننى أيضا قوى العزيمة، أنا مصر على إرضائه واسترضائه. أعرف أنه يمر بظروف صعبه وأحواله المادية ليست على ما يرام، لقد نجح إبنه الكبير فى الثانوية العامة بمجموع ضعيف، وكان يحلم بدخوله كلية

الهندسة، غير أن مجموعه بدد حلمه، اتصلت بى أمه وهى سيدة فاضلة مطلقة من والده لميولها البورجوازية على حد قوله، حكت لى الحكاية بطريقة عفوية غير أننى فهمت أنها تطلب منى التدخل والمساعدة فقررت أمرا ثم اتصلت به ودعوته إلى كافيتريا الفندق على النيل وقلت له: اسمح لى أن أقدم لك هدية متواضعة أحاول بها أن أثبت حبى لك وتقديرى لعلاقتى بك.. لقد قمت مع إبنك ووالدته بمؤامرة صغيرة .. إبنك التحق الآن بالجامعة الأمريكية لدراسة الهندسة، والمصاريف تم دفعها.. ويوجد فى البنك الآن حساب بإسمه لا يسحب منه إلا بموافقتك ويوجد به مبلغ يغطى مصاريفه وتكاليف الدراسة للسنوات الأربع القادمة.. اعتبر ذلك كله دينا من ديون العالم الثالث.. أى غير قابل للتسديد.. ها ها ..

اكفهر وجهه وقال بصوت مرتعش: أعرف ما تنتظره منى .. تريد منى أن أقول لك شكرا.. حسنا يا سيدى هأنذا أقولها لك.. شكرا..

قالها وقد أغرورقت عيناه بالدموع ، كان الرجل يتألم بشدة، سكت للحظات ثم عاد يقول بصوت متهدج: بعد أن أفسدت حياتى يبدو عليك أنك قد قررت التفرغ لتدمير مستقبل إبنى... بوعى أو بغير وعى.. متعمدا أو غير متعمد.. عزلت إبنى عن بيئته الطبيعية وألقيت به فى معقل الإمبريالية... مددت يدك بغير شفقة وانتزعت إبنى من بين الشبان المصريين الفقراء المكافحين النبلاء وألقيت به بين المدللين من أبناء الطبقات الصاعدة التى تزداد ثراء فى الوقت الذى نزداد فيه فقرا.. نعم سيتخرج منها مهندسا وربما يلتحق بوظيفة كبيرة من تلك الشركات التى يبيعون مصر لها الآن.. ولكنه لن يشعر بآلام العالم الثالث.. ثم لكى تضمن إفساده وضعت له

تكاليف الدراسة فى البنك فحرمته من الإحساس بالحاجة والحاجة هى أم الاختراع.. أنت حرمت إبنى من أن يكون مخترعا كبيرا.. كما حرمتنى من لذة الانشغال بالبحث عن فلوس، إبنى فى حاجة إليها.. ماذا سيتعلم فى الجامعة الأمريكية؟ هل سيكلمونه عن عرابى ؟ هل سيكلمونه عن فيفا زاباتا.. هل ترضى أنت لإبنك أن يكون مثل كلينتون ويقيم علاقة مع مونيكا؟ هل ترضى لإبنك أو لإبن أى مخلوق أن يكون مثل بوش الإبن أو الأب، هل ترضى لإبنتك أن تكون كونداليزا رايس التى تطالب بنزع سلاح المقاومة الفلسطينية؟ منك لله.. حسبى الله ونعم الوكيل فيك وفى أعمالك..

شعرت بالفزع، يعلم الله أننى ما قصدت إلا خيرا، حاولت أن أعتذر له بكل الطرق غير أنه أبى أن يسمعنى وظل صامتا، وأخيرا تنهد وقال: عندما يستولى علىّ النكد أشعر بالجوع.. عندهم هنا أكل كويس؟

عجزت عن النوم فى تلك الليلة وأنا أفكر فى كلماته، اكتشفت أننى أتصور أننى على حق دائما، وهذا عيب خطير فىّ لابد أن أتنبه إليه، لماذا أتصور أن المقاييس التى أعتمدها هى نفسها المعتمدة عند الآخرين، ألست أنا الآن أشبه ذلك الطائر الذى شاهد سمكة فى الماء فظن أنها تغرق وانقض عليها وأخرجها من الماء فماتت، لقد قتلت الرجل دون أن أدرى، وعلىّ أن أحاول استرضاءه مهما كلفنى الأمر.

فى الصباح اتصلت به وأخبرته أننى أريده لأمر ضرورى وفى كافيتريا الفندق الفخم على النيل قلت له: إننى أعتذر لك وأنا على

يقين من أنك كريم ستقبل اعتذارى.. حكاية ابنك والجامعة الأمريكية لا سبيل للرجوع عنها.. ولكننا نستطيع التخفيف من هذه المصيبة على قدر ما نستطيع وذلك بتكليف بعض الأساتذة المتخصصين لإعطائه دروسا خصوصية تحفظ عليه قوميته وتراثه وتقاليده وتمده بكل ماهو فى حاجة إليه من أفكار العالم الثالث، كما يمكن تكليف بعض الأساتذة الذين يكرهون أمريكا وأوروبا بإعطائه دروسا إضافية.. مارأيك؟

فطلب منى أن أعطيه فرصة ليفكر فقلت له: فكر على مهلك واسمح لى أن أوفر لك جوا هادئا جميلا تفكر فيه على شاطئ البحر، خذ زوجتك الجديدة واذهبا إلى الشاليه الجديد الذى اشتريته فى الساحل الشمالى، هو مجهز بكل شئ وسيسبقك إلى هناك طباخ وشغالة.. أقعد هناك أسبوع.. أسبوعين.. تلاتة.. وفكر علىّ مهلك..

رد فى ضيق: كل ألاعيبك لا تنطلى على.. أنت تريد أن تفسد على زواجى أيضا.. عندما تعيش زوجتى فى هذا الجو الفخم.. ستبدأ فى إجراء المقارنة بين حالها وحال الناس الذين ستراهم هناك وبذلك تبدأ بالتململ من عيشتها معى.. ألا تكف عن التفكير الشرير يا رجل... هات مفتاح الشاليه.. وابعت لنا عربيتك بالسواق .. ومن فضلك ما تعملهاش تانى.. حسبى الله ونعم الوكيل.



أطباء القلعة والعلاج بالأكاذيب الكبيرة

أقرأ فولتير وكأنه سطر كلماته بالأمس، فقد خاض معركته ضد التخلف منذ حوالي ثلاثمائة عام، وهي كما أقدر فرق التوقيت بين باريس والعواصم العربية، من هنا جاءت طزاجة أفكاره بالنسبة لي، فما تم حسمه من قضايا فكرية هناك منذ ثلاثة قرون، مازال مفتوحاً عندنا بغير حسم، مازال ساخناً تلفح حرارته وجوهنا وأرواحنا في عواصمنا.

كتب الرجل أكثر من ألف عمل، غير أنه قال في رقة وتواضع: لا تثقلوا التاريخ بأعمالي.. اختاروا منها.

في روايته (زاديج) التي ترجمها طه حسين بالاسم نفسه وترجمها كاتب هذه السطور باسم (صادق)، وهو بالضبط ما أراده المؤلف، يعاني البطل من ذلك الدافع الذي لا يقاوم على قول الصدق، فتكون النتيجة أن يقابل أهوالا وأهوالا، مع كل خطوة وكل كلمة وكل إشارة. اختار فولتير منطقتنا الشرق

الأوسط لتكون مسرحاً لأحداث روايته، ولو أنك حذفت اسمه من علي غلاف روايته وكتبت اسم أي كاتب عربي أو تركي أو إيراني لما شعرت بغرابة أو غربة، فقد كان هاضماً لتراث منطقتنا القديم، عارفاً بثقافاتها، مطلعاً علي أحوال أهلها. المكان هو بلادنا، الزمان هو ما قبل نزول الأديان السماوية، والأسماء أسماؤنا، صادق وهو الرجل الذي يصدق دائما ربما بدافع الغباء. قادر. وهو الشخص واسع الحيلة القادر دائما علي مساعدة صديقه، ثم سميرة.. وعاشورا .. إلخ، أما الموضوع فهو التطرف وما يحدثه في العقل من خلل، وكأنه أرسل روايته إلينا علي عنواننا بالبريد العادي فوصلتنا هذه الأيام.

تفرق الأيام بين صادق وحبيبته الملكة بفعل قساوة القدر الذي ينزلها من علي عرشها بعد أن احتل الأعداء بلادها وباعوها في سوق الرقيق، وتمر الأعوام وهو يبحث عنها في كل مكان، وذات يوم، قبل شروق الشمس بلحظات كان يمشي في منطقة شرق الأردن في إحدي الغابات بالقرب من قلعة كبيرة، فاستمع إلي أصوات نسائية هامسة، أرهف السمع ليتبينها فوجدها تقول: بساليسك.. إطلع يا بساليسك.. أرجوك يا بساليسك.. يا حبيبي يا بساليسك .. تعالي لحبيبتك يا بساليسك.

إقترب بخفة من مصدر الهمسات فوجد مجموعة كبيرة من النساء انحنين علي الأرض يبحثن عن شئ، اقترب من إحداهن ليسألها عن حكاية البساليسك هذه فكانت المعجزة، كانت حبيبته التي يبحث عنها وتبحث عنه منذ أعوام. في ذلك الوقت البعيد كان المحبون يغمي عليهم عندما يفاجأ أحدهم برؤية الآخر، وهذا ما حدث لهما، وبعد أن أفاقا لم يصدقا نفسيهما

فأغمي عليهما مرة أخري، وفي النهاية بعد عدة إغماءات حب قصيرة, بدأت تقص عليه ما مر بها من أهوال إلي أن أصبحت جارية عند صاحب القلعة. سألها صادق: وماذا تفعلون الآن.. ما هو هذا البساليسك الذي تبحثون عنه؟

فقالت: إزداد وزن صاحب القلعة إلي درجة عجز معها تماماً عن الحركة، هو عاجز عن الوقوف علي قدميه، وعجز أطباء القلعة عن إنقاص وزنه، فشلت كل الأعشاب التي وصفوها له، كما فشلت كل الأدوية التي حضّروها في معاملهم، وأخيراً عقدوا كونسلتو قرروا في نهايته أن العلاج الوحيد المطلوب هو أن يتناول بجرعات كبيرة مرق لحم البساليسك المطهو في ماء الورد.

- وما هو هذا البساليسك؟

: هو حيوان صغير من فصيلة السنجاب.. لا يظهر إلا للنساء.. وليس في أي وقت.. بل عند الفجر.. كما أنه لا يظهر لأي امرأة.. بل للموعودة فقط، تلك التي يستجيب لهمساتها وتدليلها.. لقد وعد صاحب القلعة بأن يتزوج من الجارية التي ستأتي له بالبساليسك.

صعد صادق من فوره إلي القلعة ودخل علي صاحبها وقال له في ثقة وتهذيب: مولاي.. أنا طبيب مصري متخصص في العلاج بالبساليسك.. استشاري بساليسك.. حاصل علي درجة الزمالة من جامعة بساليسكيا.. تعرفني جيداً كل دوائر البساليسك الطبية العليا في كل عواصم المنطقة.. وعلاج البدانة يا مولاي بشرب مرق البساليسك, علاج أكيد.. ولكن الأبحاث الحديثة تجاوزته، المريض الآن لا يتناوله عن طريق

الفم،بل يختلط بعرقه عن طريق المسام فتكون النتيجة أسرع وأضمن.. انظر يا مولاي، هذه القرية مملوءة بمرق البساليسك، سأقذفها لك، وعليك أن تتلقفها ثم تقذفها لي مرة أخري.. وهكذا إلي أن يتفصد العرق غزيراً من كل مسام جسمك.. فتصل إلي درجة العرق بالمرق.. بذلك يكون عرقك هو نفسه مرقك.

وهذا ما حدث بالفعل، ألقي بالقرية فتلقفها الرجل بصعوبة، وأعادها إليه، ومرة بعد أخري أخذ العرق يتفصد من جسم الرجل بغزارة تذكرك بالمصطلح الشعبي، عرقه مرقه. في ذلك اليوم نام الرجل هادئاً من فرط الاجهاد. بعد عدة أسابيع تمكن الرجل من السير والحركة، بل وركوب الخيل وامتشاق الحسام، عاد فارساً ممشوقا خفيف الحركة، وقال له صادق: مولاي.. لا يوجد أصلاً علي الأرض ما يسمي بحيوان البساليسك.. هذه خرافة.. لقد عالجتك بما يسمي الرياضة البدنية.. كل واشرب كما تشاء ولكن إحرص على هذه التدريبات.

طلب صادق مكافأة محدودة أجابه إليها صاحب القلعة في كرم، أن يعتق الجارية التي أحبها صادق وأن يسمح لها بالرحيل، دعاه صاحب القلعة وحبيبته لوجبة عشاء فاخرة ولكن صادق اعتذر في أدب وأخذ حبيبته ورحل. كان صادق بالرغم من صدقه ذكياً، كان علي يقين من أن أطباء القصر لن يسمحوا له بالمغادرة حياً، وأن فرصتهم الوحيدة للقضاء عليه هي أن يضعوا له السم في العشاء.. من المستحيل أن يغفر له أطباء القلعة أنه أثبت عملياً لصاحبها أنهم جماعة من الدجالين.

في كل مكان أو في معظم الأماكن توجد قلعة لها صاحب،

وفي كل قلعة توجد جماعة من الأطباء، عندما يشعرون بالعجز والفشل يحولون علاج أي مشكلة إلي وصفة مليئة بالكذب المبدع، وهم قادرون في ذكاء شديد علي ترصيع أكاذيبهم بعناصر طريفة ومقنعة للعقل البشري، بحيث تتصور أن ما يصفونه له وجود فعلي. البساليسك ليس حيواناً يظهر للنساء في الغابة فجراً، بل هو منهج في التفكير، منهج قادر علي السيطرة علي عقول البشر بما يتسم به من غموض وطرافة. والوعد بالعلاج الناجع. هو منهج يفرضه الدجالون ويعمل بموجبه البسطاء. أما أخطر ما في هذا المنهج عند التسليم به فهو أنه يتيح مساحة عريضة من حرية التفكير الوهمية، أي التي لا تقيم بناء علي الأرض من أي نوع، هي حرية تفكير بساليسكية، ستكون حراً تماما في إعلان رأيك.. من حقك أن تقول إن البساليسك لا يظهر فجراً فقط، بل وعند منتصف الليل، من حقك أيضا أن تكتب بكل حرية بحثا تثبت فيه أنه يظهر نهاراً أيضا، ومسموح لك أن تتطرف في آرائك وتقول إنه يعيش أيضا في الصحراء وليس في الغابات فقط، وأن هناك أنواعا أخري منه برمائية، وفي حال وجود قدر كبير من التسامح في المجتمع سيكون مسموحا لك بالقول بأنه لا يطهي في ماء الورد، بل في الماء العادي، لأن ماء الورد يفقده مفعوله، فكر كما تشاء.. قل ما تريد، أنت حر، هناك ثابت وحيد عليك أن تستند إليه وهو أن تؤمن بالعلاج بحيوان البساليسك، أما بعد ذلك فمرحبا بالرأي والرأي الآخر.. هي قاعدة صارمة تقول، تعددت الآراء والبساليسك واحد.

إن وجود شبكات عريضة ومتشعبة من البشر الذين جنوا أرباحا طائلة من الأخطاء والأكاذيب والأوهام، تجعل من حرية

التفكير سرابا بعيدا فضلا عما تشكله من خطر علي من ينكر وجود البساليسك. ولو أن القدر حكم علي صادق بالبقاء في القلعة في حماية صاحبها، فمن المؤكد أن حياته كانت ستتحول إلي جحيم، لك أن تتخيل - بغير خيال - أنواع الاتهامات التي كانت ستكال له، معاداة البساليسك، الخروج عن إجماع البساليسك.. إنكار وجود البساليسك.. استفزاز الرأي العام البساليسكي.. العمالة لشركات الدواء الغربية التي تحاول القضاء علي طرق العلاج الشعبي.. إلخ.. أنت تعرف بالطبع بقية التهم.



البدائى والمتطرف

الطوطم والتابو،كتاب شهير لفرويد، والعنوان الفرعى للكتاب هو «بعض نقاط الاتفاق بين الحياة العقلية للبدائيين والعصابيين» وهو فى كتابه، يستند لما كتبه علماء الأنثروبولوجى عن المحرمات عند الشعوب البدائية ليعلن اكتشافا مدهشا هو أنه توجد صفات سلوكية مشتركة بينهم وبين زبائن العيادة النفسية. كما لو أن هذه القبائل البدائية أرسلت مندوبين عنها يعيشون بيننا، أو كأن أصحاب هذه الحالات، مازالوا يحتفظون بشرفة بدائية فى بناية الزمن يطلون منها على عصرنا.

بكلمة القديم أو البدائى، أعنى ذلك الزمن البعيد قبل ظهور الأديان بآلاف السنين. وعندما أتكلم عن التابو (الكلمة من لغة قبائل البولينيز وليس لها مرادف فى كل اللغات) فأنا أعنى المحرّم منذ ما قبل ظهور التعاليم الدينية، وهى تشير إلى الدنس، النجاسة، الفظاعة، القوى الشيطانية.والكلمة دخلت قاموس الاستخدام الشائع فى العربية ولم يعد أحد من القراء يجهل معناها، بل لقد تعاملنا معها بوصفها كلمة عربية وذلك عندما استخدمنا كلمة (تابوهات) جمعا لها.

ولا شك أن قارئ الكتاب سيخرج بفهم أعمق لطبيعة حياتنا المعاصرة، بل قد يدفعه ذلك إلى الشك فى عصريتها بعد أن يكتشف الأصول البعيدة لمساحة كبيرة من أفكارنا وعاداتنا. بالطبع كان من الصعب، بل كان من المستحيل أن نتعرف على سلوك البشرفى تلك العصور البعيدة على هذا النحو من الدقة من خلال ماتركوه لنا من آثار، غير أننا لحسن الحظ ، حظ علماء الأنثروبولوجى على الأقل، استطعنا التعرف على هذه العادات وآليات التفكير من خلال قبائل استرالية بدائية وأخرى فى جزر الهند الشرقية وأفريقيا إذ لم يتغير شئ فى سلوكهم وعاداتهم حتى الآن. (بداية القرن الماضى عندما كتب فريزر كتبه ولعل «الغصن الذهبى» أشهرها) ما يخصنى فى هذا الأمر وما أريدك أن تشاركنى فيه، هو الإجابة عن سؤال: إذا كانت توجد نقاط اتفاق فى السلوك والتفكير بين البدائيين والعصابيين، فهل توجد نقاط اتفاق بين السلوك البدائي من عصور ماقبل الأديان وبين المتطرفين الفعالين الذين اصطلح على تسميتهم بالإرهابيين؟

سنؤجل الإجابة لما بعد قليل.

شاب من قادة كارثة سبتمبر ٢٠٠١ كتب فى وصيته عام ١٩٩٧، يوصى بمنع النساء من حضور جنازته. موقفه من المرأة ليس فى حاجة لجهد كبير لفهمه، هو من الأصل واقع فى عداء معها ليس لأنه يحتقرها، بل لأنه يخافها. من المؤكد أن البشر يشعرون بالارتياح عندما يتاح لهم أن يروا أعداءهم وقد تحولوا لجثث هامدة، هو يريد أن يحرمها من الشعور بهذا الارتياح المصاحب للإنتصار، أو الشماتة. أما الأمر المحير حقا فهو حرصه على أن يطلب من مغسّله أن يرتدى قفازا عندما يغسل أعضاءه التناسلية ! من المستحيل أن يكون لهذا الطلب أصل فى تعاليم

السلف الصالح، فالقفاز المصنوع من البلاستيك الشفاف هو اختراع معاصر. هو إذاً مطلب أو احتياج يخصه وحده. هو لا يريد ليد بشرية أن تلمس هذا المكان، ويريد حاجزا ولو رقيقا وشفافا يحول دون هذا اللمس.

نحن هنا أمام أشهر حالات العصاب، الخوف من اللمس (Touching Phobia) يقول «فرويد» المحرّم أساسا، وهو ما يشكل النواة فى الأمراض العصبية، هو اللمس. وهو يتعدى اللمس الحسى إلى التشبيهات التى تحمل معنى اللمس، مثل جملة (أن يكون على اتصال ب) وأى شئ يوجه أفكار المريض إلى موضوع التحريم ، أى شئ يقرّب أفكاره منه، محرم تماما كالفعل المادى. اللمس هنا يستوجب العقاب الفورى، إنه التابو القديم، الملوك، الرؤساء، الكهنة، هم تابوهات. إذا لمستهم، أو لمست شيئا يستخدمونه، حلت عليك اللعنة فى التو واللحظة. حدث أن أحد البدائيين وجد بقايا طعام فأكل منه ثم قيل له إنه طعام تبقى من مائدة الملك ، فأصيب على الفور بآلام رهيبة ومات على أثرها. لن أخوض فى تفاصيل معقدة، فلست أكتب لمتخصصين فضلا عن إننى لست متخصصا، أنا فقط كأى مسرحى من هواة التعرف على آ ليات العقل البشرى. تقول مصادر قريبة من هذا الشاب أنه كان رقيقا للغاية وكأنه فتاة ، وأنه حتى سن العشرين، كان يجلس على حجر أمه.

بدأت ملامح الصورة تتضح، نحن هنا أمام حالة لم يفلح صاحبها فى التخلص من رغبته الغريزية القوية فى الأم المصاحبة لمرحلة الرضاعة. ومجرد تصوره أن هناك من سيلمس هذه الأعضاء حتى وهو ميت، يذكره بتلك الرغبة القوية المحرمة التى لم يفلح فى قمعها والتى تعذبه بضراوة وتجعل من حياته عبئا لا

يطاق. كان من السهل بعد ذلك أن تكتشفه أعين الخبراء الذين يجيدون اكتشاف هذه الحالات، ويجيدون تحويل الموت، موتهم، إلى باقة ورد. إنه الدواء الشافى من كل الآلام.

فى البند (١) من الوثيقة المنشورة على موقع (F.B.I) تطلب الوثيقة من المشتركين فى عملية ضرب البرجين (حلق الشعر الزائد من الجسم، تفقد سلاحك قبل الرحيل، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته.) هذه نصيحة مفهومة لجزار مبتدئ ذاهب ليذبح بقرة فى مسلخ، ماصلة ذلك بالبشر ؟ قد نجد الإجابة عند فريزر عالم الأنثروبولوجى الشهير، فى كتابه الغصن الذهبى يقول: إن الشعوب البدائية تشعر بإحساس طاغ بالذنب عند قتل ضحاياها. نتجت عن ذلك طقوس لإرضاء الضحية (إراحة الذبيحة) فنجد المحاربين فى جزيرة تيمور بعد أن يعودوا من القتال ومعهم رؤوس ضحاياهم يبدأون فى إرضاء أرواح أصحاب هذه الرؤوس بتقديم الذبائح ثم يرقصون ويغنون لهم أغنية تقول: لا تغضب لأن رأسك معنا، لو كنا أقل حظا، لكانت رؤوسنا الآن فى قريتك، لتهدأ روحك ولتتركنا نعيش فى سلام.

أما حكاية التخلص من الشعر الزائد، فقد كانت بالفعل عادة مرعية عند المحارب البدائى خوفا من أن تسقط منه شعرة يستخدمها العدو فى السحر ضده . أنتقل الآن لمشهد مهم فى عصرنا، فى منتصف الثمانينات، أنتج تليفزيون الـ (B.B.C) فيلما تسجيليا عن ظاهرة التطرف فى المنطقة العربية ظهر فيه الدكتور أيمن الظواهرى الذى كان يعيش فى القاهرة حتى ذلك الوقت ثم غادرها ليصبح الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة، قال «الإسلام شجرة لا ترتوى إلا بالدماء» على حد علمى، لم يحدث أن مخلوقا فى أى عصر من العصور أعطى هذا الوصف للإسلام. ولكنه

بالتأكيد كان صادقا مع نفسه عندما أعلن بوضوح فهمه هو للدين. ذلك الفهم الذى فرضه على أتباعه، ولم يجد صعوبة فى ذلك لأنهم جميعا يعيشون فى تلك المرحلة التاريخية البعيدة من الزمن قبل ظهور الأديان والكتب السماوية. إنها هى نفسها الطقوس الوثنية التى كانت تسترضى الآلهة بالدماء ..دماء البشر.

أصل الآن إلى هدفى لأقول بكل ما أملك من وضوح: لسنا فى مواجهة قضية دينية، نحن نواجه مشكلة أرضية، دنيوية. حياتية، أى سياسية. فبفعل ثقافة ما ـ علينا أن نعيد النظر فيها ـ اختار عدد كبير من أفراد المجتمعات العربية محطات زمنية بعيدة، بل بعيدة إلى حد لا يمكن تصوره، اختاروا هذه المحطات لينزلوا عندها ويستقروا فيها . وهو مايترتب عليه، أن يعلنوا الحرب على بقية العصور، إلى أن يصل بهم الأمر إلى إعلان الحرب على الحضارة نفسها.

بقدر قليل من التأمل، سنكتشف أن عددا كبيرا فى مواقع حاكمة ومتنفذة فى السياسة والإعلام وميادين أخرى، اختاروا محطات قريبة جدا من ثلاثينات وأربعينات القرن الماضى. ولم يكتفوا بذلك، بل يحاولون إنزال بقية الركاب، ركاب قطار الإنسانية والحضارة عند محطاتهم، بقوة الكلمة المكتوبة والمسموعة والصورة المرئية فى إطار قوى من الابتزاز وحملات التشويه.

لا توجد مشكلات بين أصحاب الأديان الثلاثة، ولو اجتمع المشايخ والقساوسة والحاخامات ألف مرة فى ألف مكان، لاكتشفوا أنه لا خلاف حقيقيا بين الأديان الثلاثة. وبكلمة «حقيقية» أقصد ذلك الخلاف الذى يدفع الناس لقتل بعضهم البعض. من المستحيل بالطبع إغراء الناس جميعا أو إرغامهم على العيش على معطيات هذه اللحظة الحاضرة من الزمن، سيظل دائما بيننا من يعتنق

أفكاراً ويتبنى أفعالا كانت سائدة فى عصر مضى لأنها تشعره بالخلاص أو اللذة، سيظل دائما بيننا من هو عاجز عن هضم ما أنجزته الحضارة من أفكار حول حقوق الإنسان والحرية. وفى أكثر المجتمعات حداثة على وجه الأرض، وجد متطرف فعال اسمه (جيمى جونز) أصدر أمرا لأتباعه بتجرع السم، فمات على الفور ألف ومائتا رجل وامرأة وطفل. ومن امتنع منهم، أرغم على الموت بواسطة كلاب حراسته الشرسة الموجودة دائما حول كل مخبول مشعوذ. كما ظهر متطرف فعال آخر (ديفيد قورش) عندما حوصر فى (واكو- تكساس) أعطى أوامره بإشعال النار فى أتباعه جميعا. هؤلاء أناس فرضوا على الدين طبائعهم ولم يطبعهم الدين بطابعه. هذان الإثنان لو كانا قد وجدا بيئة حاضنة لهما، لو تيسر لهما الحصول على مطبعة و ميكروفون وكاميرا ومنبر ومال، لو أن الزمن أنعم عليهما بطالبان أمريكية يقيمون قاعدة فيها، إذاً لتفرغوا للعمل على مساحة عظمى من الكرة الأرضية، ولكانت خسارة العالم أكبر بكثير، لا توجد بوليصة تأمين تضمن ألا يوجد هذا النوع من البشر.

وبذلك لا يتبقى لنا إلا عدم توفير بيئة حاضنة لهم تكفل لهم القوة والانتشار. وهذا يحتم أن تكون النخب فى الصفوف الأمامية كلها، مؤلفة من هؤلاء الذين يحبون الحياة لأنفسهم وللآخرين. أى يجيدون اعتناق مفردات ومعطيات اللحظة الحاضرة، التى هى إعمار الأرض والعدل والحرية والحفاظ على الكرامة الإنسانية.



اصطياد الساحرات في الفكر السياسى المعاصر

تحتل كلمة الشيطان مكانا واضحا فى مفردات السياسة المعاصرة فى الشرق الأوسط. ولأن العالم، دول الغرب تحديدا يوجد به عدد كبير من الشياطين، لذا لزم الأمر تعريف أمريكا بأنها الشيطان الأكبرلكى لاتنصرف جهود الناس لمحاربة شياطين أقل أهمية. ولقد وصف دعاة السلام فى مصربأنهم وكلاء الشيطان الذى هو إسرائيل بالطبع، وطلب إليهم أن يتوبوا عن دعوتهم للسلام وذلك بإلغاء وكالتهم عن الشيطان التى تتمثل فى صداقتهم له.

سأتناول فى كلمتى الشيطان ليس كما رسمت صورته وسيرته الرسالات السماوية، بل كما أنتجه العقل الجمعى عبر آلاف السنين بوصفه الشر الخالص القادر على التهام كل خير وأى خير، والذى يجب ألا تقوم فكرة حياله سوى القضاء عليه بكل مايملك البشر من قوة، وأية أفكار أخرى تساور أذهان

الناس حوله، سوف تعد- حتما- فكرة شيطانية من صنعه هو.

أما كلمة التوبة فأنا استخدمها ليس بمعناها الدينى، بل بمعناها الثقافى أو الفكرى أو السياسى، بمعنى التلبية الحرة أو الاستسلام بلا قيد أوشرط لرغبة الجماعة فى تخلى الفرد عن فكرة اعتنقها لا ترضى عنها الجماعة.

بإطلالة سريعة على التاريخ، سنكتشف أن ثنائية (الشيطان التوبة) لها جذور قوية فى التاريخ،وهى عبر فصوله ستتخذ مظاهر مختلفة، غيرأن جوهرها سيظل ثابتا. إن المؤمن بفكرة سائدة يبحث دائما عن المزيد من اليقين بها يجعله أكثر التصاقا بالجماعة وذوبانا فيها. فالجماعة تمنحه قوة هائلة وتخفف عنه فى الوقت نفسه عبء الحرية. هو بين الجموع سيتحول إلى مخلوق جبار قادر على أن يأتى بأفعال لا يتصور هو نفسه وهو جالس بمفرده الجرأة على فعلها. هذا الشخص المهذب اللطيف الذى يمر على واجهات المحلات الزجاجية ، معجبا ومتمنيا ماتعرضه، هو نفسه الذى سيتحول وسط الجماهير الغاضبة إلى محطم ومدمر لها، بل إلى شمشون يهدم كل المعابد على كل الرؤوس. غير أنه لابد من ملاحظة أن البشر لا يعرفون اليقين الدائم الشامل،وبين الحين والآخر ، ستساورهم بعض الشكوك فيما يؤمنون به من أفكار أو مسلمات وخاصة المقدس منها، ستدور بداخلهم معركة أو بالقليل بعض المناوشات بين ما يعتقده القلب من ناحية وبين مايفرضه العقل من ناحية أخرى. وسط غبار هذه المعركة، ستبدأ صورة فى التشكل هى صورة الشيطان. العجز عن إدراك أن هذه الشكوك قادمة من آليات

العقل وحده، وأنها لا تشكل خطأ أو خطيئة. والعجز أيضا عن إبعاد تهمة الشك عن الذات، سيترتب عليها- بميكانزم دفاعى أن الشيطان وحده هو المسئول عن هذه الشكوك، لذلك عليه أن يقاومه بكل ما أوتى من قوة. ولكن بما أن الشك فى المقدس داخل النفس هو إفراز طبيعى لأجهزة العقل النقدية، لذلك كان من الطبيعى أيضا استحالة التخلص منه، أى استحالة خوض معركة فاصلة ضد الشيطان تضمن الانتصار والقضاء عليه. فى تلك اللحظة، يبدأ إحساس قوى ومؤلم بالذنب فى التشكل داخل النفس معبرا عن نفسه فى الإحساس بالهزيمة أمام الآخر المختلف (أنا ضعيف لأننى عاجز عن اليقين، والآخر أقوى منى، هو أكثر منى يقينا ليس لأنه هزم الشيطان فهذا أمر مستحيل، بل لأنه بالتأكيد تحالف معه) وفى رواية كزانزاكس الشهيرة، زوربا، الرواية وليس الفيلم، هناك راهب يعتقد أن بداخله شيطانا اسمه يوسف فدخل معه فى معركة طويلة، خلع نعليه وظل يضرب نفسه ليل نهار صائحا: يوسف يريد أن يأكل الأطعمة الشهية، إخرس يايوسف....يوسف يشتهى هذه المرأة الجميلة، خسئت يايوسف، كف عن هذه الرغبة يا وغد...

الشخصية تجسيد رائع لظاهرة الإنكار عند البشر، الراهب المسكين يرفض الاعتراف بأنه هو نفسه يشتهى كل ذلك. إنه نفس الإحساس القوى بالذنب الذى دفع الرهبان على مدى مئات السنين للقسوة الزائدة على النفس للوصول إلى درجات عليا من اليقين، بمعنى أدق، عقابا لها على إحساسها بالشك، أى إخراس صوت الشيطان بداخلها. وباستبعاد خيار القسوة الزائدة على النفس الذى يتطلب قدرا عاليا من اعتبار الذات،

لا يتبقى سوى طريق واحد وحيد يثبت به البشر لأنفسهم أنهم ـ يقينا ـ ضد الشيطان وهو العدوان على الآخرين، أى البحث عن الشيطان داخل الآخرين والقضاء عليه. هكذا تم اقتياد آلاف البشر فى العصور الوسطى إلى المحرقة بعد أن اعترفوا تحت التعذيب بأنهم تعاملوا وصادقوا الشيطان، وأنهم ساعدوه وساعدهم فى الإضرار بالآخرين. هذا هو ما عرف تاريخيا بـ (اصطياد الساحرات) وهو المصطلح نفسه الذى نستخدمه حتى الآن فى وصف المجتمعات عندما تطارد بغير عقل وبغير حق، بعض الأفراد الذين يفكرون على نحو مختلف. وإذا كانت المحارق قد زالت من فوق الأرض إلا أن عملية «الحرق» نفسها مازالت تتداولها عقول البشر ، حتى الآن نسمع فى مجال السياسة أن فلانا قد (احترق) أى تم القضاء عليه سياسيا. ونستخدم الكلمة أيضا عندما تكلف السلطة السياسية شخصا ما بتنفيذ سياسات مرفوضة شعبيا ثم تتخلص منه، عندها نقول إنها (أحرقته) اختفت المحارق ولكن عملية الحرق نفسها مازالت تحتل مكانا مريحا فى عقول البشر.

وتقدمت البشرية خطوة إلى الأمام، لا داعى لأن نشعل فيهم النار، تعالوا نقضى عليهم بطريقة أخرى أقرب للتحضر، اعترف بعلاقتك بالشيطان فتنجو من الموت طبقا للتعاليم المسيحية التى تمنحك البراءة فى حال اعترافك بالخطيئة. حدث هذا فى قرية سالم، ولاية مشاسوستس وفى قري أخرى مجاورة. منذ أقل من مائتين وخمسين عاما (راجع مسرحية البوتقة لآرثر ميللر) تم شنق مائة وعشرين رجلا وامرأة لأنهم رفضوا الاعتراف (التوبة) بصداقتهم للشيطان، لسبب بسيط

وواضح، هو أنهم مسيحيون حقيقيون يؤمنون بالوصايا العشر وأهمها : لا تكذب .

عاطفة اعتبار الذات بداخلهم كانت من القوة بحيث منعتهم من الكذب للنجاة بحياتهم. ربما أيضا لإيمانهم بأنهم لن يربحوا شيئا إذا كسبوا العالم وخسروا أنفسهم. وحتى إذا فكروا فى أن الحفاظ على الحياة وهى أعظم ماخلقه الله لنا،يحتم الرضوخ لهذا المطلب وهو أن يكذبوا، ففى تلك اللحظة المشئومة سيكتشفون أن القضية كلها لاصلة لها بالشيطان أو العقيدة أو التوبة، هى ليست أكثر من رغبة فى القضاء عليهم، مجرد عدوان يبحث عن منفذ فى غياب أى رادع، فبعد اعتراف المتهم بأنه صديق للشيطان، سيمضى التحقيق على النحو التالى:

س: جميل أن تعترف بصداقتك للشيطان...من أيضا كان صديقا له فى القرية ؟

ج: لاأحد...كنت أنا صديقه الوحيد.

س: من الصعب تصديق ذلك...من المستحيل أنكما كنتما تتقابلان وحدكما فى الغابة...لا تحاول خداعنا، لا شك أن هناك عددا آخر من الأصدقاء أنت تتستر عليهم..من هم ؟

المسكين يظن أن اعترافه سيكون كافيا لتبرئته، لأنه يجهل أن المطلوب هو القضاء عليه لكى يثبت قضاته لأنفسهم أنهم ضد الشيطان. هكذا ستقوده كذبته الأولى إلى المزيد من الأكاذيب يقضى فيها على المزيد من الأبرياء. الضحية المسكينة ستبحث عن أسماء لأشخاص، مهمشين أو ضعفاء أو مكروهين

أو..أو..ثم يجيب: نعم ..هم فلان..وفلان.. وفلانة وفلانة..

على الفور سيتم القبض على أصحاب هذه الأسماء، وسيكون من المستحيل عليهم الإنكار وبذلك يعترفون على المزيد من البشر . ويقطع التاريخ خطوة أخرى إلى الأمام، غير أنها لم تكن كافية ليتخلص البشر من استمتاعهم بهواية اصطياد الساحرات وخصوصا فى فترات الرعب القومى التى تستلزم بدورها شيطانا قوميا، فعندما انتهت الحرب العالمية الثانية التى كان فيها الاتحاد السوفييتى حليفا للغرب، فوجئ الغرب بنزول ستار حديدى على دول اوروبا الشرقية (التعبير لونستون تشرشل) فساد الرعب القومى بقية دول أوروبا من امتداد هذا الستار ليشملهم أيضا. غير أن حجم الرعب كان أكبر بكثير فى أمريكا، فالمجتمعات المتوترة المكونة من أعراق وأجناس عديدة فى ظروف تاريخية تتسم بالاضطراب، تكون فى حاجة إلى شيطان قومى يوحدها. هكذا ساد الرعب أمريكا من شيطان الشيوعية فانطلقوا باحثين عن أصدقائه فى كل ركن وزاوية. محكمة التفتيش القديمة فى قرية سالم تحولت إلى لجنة فى الكونجرس هى (لجنة التحقيق فى النشاط المعادى لأمريكا) التى عرفت بإسم لجنة ماكارثى نسبة إلى اسم رئيسها جو ماكارثى. هذه اللجنة لم تكن لها سلطة قضائية من أى نوع، ومع ذلك تمكنت من «إحراق» عدد كبير من البشر، أى إدخالهم إلى السجن ودفعهم للإنتحار أو الهروب كما حدث فى حالة المبدع العظيم، شارلى شابلن. كانت اللجنة تتبع فى عملية الاصطياد نفس التكنيك الذى اتبعته لجنة التحقيق فى قرية سالم.

س:هل أنت شيوعى ؟

ج: لأ.

س:هل كنت شيوعيا؟

ج:نعم، حضرت بعض الاجتماعات، ولكنى تخليت عن الفكرة لأنها لا تناسبنى.

س: طيب...جميل...من كان معك فى الخلية؟ (أى من هم بقية أصدقاء الشيطان)

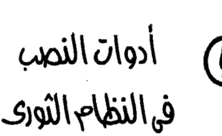
إذا لم يعترف الشخص بأسماء هؤلاء الذين حضروا معه الاجتماعات، سيتهم على الفور بإهانة الكونجرس وعقوبتها السجن من ثلاثة إلى سبعة أعوام. أما إذا أنكر التهمة من الأساس،فسيواجه بتقارير المباحث الفيدرالية عنه واعترافات زملائه عليه ويحال إلى المحاكمة بتهمة الكذب على الكونجرس وعقوبتها أشد. المخرج الكبير إيليا كازان اعترف على كل أصدقاء الشيطان، كما أبلغ نقيب الممثلين عن عدد كبير منهم، وشهد ضدهم أمام اللجنة، كان ممثلا مغمورا اسمه، رونالد ريجان، الرئيس ريجان فيما بعد.

فى كل الأوساط الفكرية والثقافية والإبداعية كانت التوبة مطلوبة من الجميع. ومن أفلت من اللجنة لم ينج من القوائم السوداء والإذاعات مجهولة المصدر التى تذيع أسماء أصدقاء الشيطان فيفصلون من أعمالهم على الفور. وتوالت حوادث الانتحار، فالمبدع قوى بإبداعه فقط وليس بذاته، المبدع على المستوى الشخصى قابل للكسر بسهولة ككل أنواع الخزف الثمين. وضاع كتاب سيناريو ومخرجون ونقاد، وظهر إلى

الوجود مايسمى بكاتب السيناريو الشبح، أى الذى يكتب أفلاما تظهر بأسماء كتاب آخرين. بغير هذه الحالة العقلية من الرعب القومى وما يترتب عليها من رغبة عارمة فى مطاردة الساحرات، كان من المستحيل أن يتورط الشعب الأمريكى فى حرب فيتنام التى لا ناقة له فيها ولا جمل سوى الرغبة القوية فى محاربة الشيطان بخوض معركة فاصلة ضد أصدقاء الشيطان.

التوبة بالمعنى السياسى لا تعنى أن تتبين خطأ أفكارك فتتخلى عنها، بل هى دفعك دفعا إلى الكذب العلنى فتفقد بذلك عاطفة اعتبار الذات، أى تحترق فلا يصبح لك وجود.





أدوات النصب في النظام الثورى

كمسرحى تنبهت منذ وقت طويل إلى العناصر المشتركة فى المسرح وعمليات النصب المتقنة، وكتبت عن عناصر الدراما فى عمليات النصب المبدعة لأوضح أن آليات العقل الإبداعية عند المسرحى والنصاب واحدة . مايصنع الفرق بينهما هو أنها عند النصاب تعمل بآلية عكسية مع ثبات السلعة المقدمة وهى الإيهام . النصاب ليس لديه متفرجون ، بل ضحايا . ففى المسرح يستمتع المتفرج بالفن ، بينما النصاب هو الفائز بالمتعة عندما يقوم بعملية احتيال ناجحة . قد تتصور أن الحصول على فلوس الضحية هو الهدف الأصيل عند النصاب ، الواقع أن متعته الحقيقية هى فى المشاهد التى يقوم بتأليفها وإخراجها وتمثيلها ووضع الديكور اللازم لها للاستيلاء على عقل وإرادة متفرج واحد هو ضحيته . هذه المشاهد تغذى احتياجا حقيقيا فى جهازه النفسى .

المســرحى يعـمـل بدافع من عـاطفـة اعـتـبـار الذات القـوية ، واحترامـه للناس ولقيم الحياة العليا . بينما النصاب يعمل بدافع من احتقاره للآخرين، الذى هو فى حقيقة الأمر انعكاسا لاحتقاره لنفسـه إذ إن عـاطفـة اعـتـبـار الذات لـديه ككل الشـخـصـيـات السيكوباتية مضمحلة تكاد تكون معدومة . تأمل معى سلوك النصـاب الذى يقنع شـخـصـا مـا بأن الفلوس تلد مثل بقيـة خلق الله . ويبـدأ معـه بمبالغ بسيطة يضعهـا فى حلة ، فتلد بالفعل نفس المبلغ ، ثم يتصاعـد به إلى ذروة درامية يحصل منه فيـهـا على مـبلغ مـهـول ويخـتـفى . أليس من المؤكد أن النصـاب يشـعـر خلال هـذه العملية بأشد الاحتقار تجاه ضحيته التى تتمتع بهذا القدر من البلاهة ؟

وإذا كان المسرحى يغذى احتياجا حقيقيا عند المتفرج، فلاشك أن النصاب أيضا يغذى احتياجا حقيقيا لدى الضحية هو الطمع . هو يعـرف بـأعلى قـدر من الاحـتـراف كـيـفـيـة الاسـتـيـلاء على ضحيته تماما كما يعرف المسرحى كيفية استخدام أدواته التى يستولى بها على متفرجه . هناك (ثيمة) أساسية فى عمليات النصب المبـدعـة ، فلوس تلد ، أو كنز مـوجـود أسـفل البـيت يحرسه جن جائع وطعامه الوحيد هو الزئبق الأحمر الذى ثمن الجرام منه بعد إذن سعادتك ربع مليون جنيـه ، أو نحن شركة بترول فى بلاد الواق الواق ، عندنا خمسون مليون دولار عجزنا عن إخراجـها ، وطبـقـا للقـوانين الوقـواقـيـة لابد من تحويلها إلى خارج البلاد من خلال البنك المركزى ومرفق خطاب البنك الذى يؤيد ذلك، ولقد اخترناك بعد أن تحرينا عنك وعرفنا الكثير عن نزاهة سعادتك . نصيبك فى العملية سيكون عشرة ملايين دولار

، تعال من فضلك حول المبلغ لنفسك بنفسك وادفع مصاريف التحويل التى لن تزيد عن مائة الف دولار.....إلى آخر مانقرأه فى صفحة الحوادث . المهم هو أن هناك (ثيمة) أساسية لكل عملية نصب تماما كأى عمل فنى تتحقق عبر مشاهد مقنعة ومتقنة إلى أن تصل إلى الدرجة التى يصيح فيها المتفرج إعجابا أو تصرخ فيها الضحية من الألم وخيبة الأمل ومن الخجل أيضا بعد أن اكتشفت أنها كانت بطمعهاالسبب فى ضحويتها .

لدى من الدلائل مايجعلنى أقول باطمئنان أن الحكم الثورى عملية نصب عادية ، يبيع لك فيها الزعيم منظومة سياسية وهمية متكاملة ، متعاملا مع احتياجاتك الطبيعية بوصفها أطماعا تبرر احتقارك و النصب عليك .أنت فى حاجة إلى الطعام والكساء والسكن والعمل والتعليم والعلاج والعدل والحياة الأسرية الهادئة المستقرة والإحساس بالكبرياء والفخر بمكانة الوطن. هذه هى (أطماعك) التى سيتم الإمساك بك منها . حزبنا ، أو جماعتنا الثورية ، ستوفر لك كل ذلك ، ولكن عليك أن تعرف أن هناك من يقف لك بالمرصاد ، هناك عدو سيحارب بكل مالديه من قوة لحرمانك من الوصول إلى هذه الأهداف . هو وأعوانه وعملاؤه وعددهم أكبر مما تتخيل . ولكن اطمئن ، ثق بنا ، نحن على وعى بأهداف هذا العدو الشرير وسنتصدى له بكل قوتنا نحن وأجهزتنا المنتشرة فى كل ركن وزاوية داخل البلاد وخارجها .

النظام الثورى يحب (الأعداء) حبا يملك عليه كل مشاعره ، ولايطيق لهم بعدا ، هو يحرص عليهم ويرعاهم كما يرعى

البستانى المخلص أزهار حديقته . النظام الثورى ينزل إلى الأسواق باحثا عن أفخم الأعداء ليقدمهم لشعبه على مدار الساعة . سيطلون عليك من شاشات التليفزيون ، سيمتطون أمواج الأثير ليهاجموا أذنيك ، سيقفزون عليك من فوق خشبة المسرح وينطون عليك من شاشة السينما ، ويلبدون لك بين حروف الطباعة ، ثم يتابعونك كظلك فى الشارع والمكتب والمصنع والحقل والمقهى وجلسات الأصدقاء، وفى الفراش سيزورونك على هيئة كوابيس . الأعداء ، هم قطعة العدة الأساسية فى أدوات النصب الثورى ، وإذا تصورنا مائدة بغير ملح ، فمن المستحيل تصور نظام ثورى بغير أعداء ممتازين . وتمر الأعوام لتكتشف أنك كائن شبه حى ، مفلس ، انهارت عملة بلادك ، مرعوب ، يقبض عليك وتختفى ، تقتل ، ولشدة انشغالهم بأعداء الوطن لايجدون وقتا لكتابة اسمك على شاهد قبرك فيكتبون عليه رقما فيفصحون بذلك عن فكرتهم الحقيقية عن البشر هم ليسوا أكثر من أرقام . إذا كنت محظوظا فسيكتفون بتعذيبك ، وتمزيق أوصالك ، وقطع أذنك أو لسانك . ولكن ياصديقى لاتدع سلبيات التجربة تعميك عن إيجابياتها ، أنظر لبقية أبعاد الصورة، أنت طليعة الأمة العربية ، أنت حامل لواء الوحدة العربية ، لقد استطعت الصمود لكل مؤامرات الإستعمار وأعوان الاستعمار وأذناب الاستعمار والإمبريالية والرجعية والسوق الشرق أوسطية والعولمة كما رفضت الاستسلام الذى يسمونه سلاماً. ألا تشعر بالفخر لأن العدو لم يتمكن حتى الآن من كسر إرادتك ؟ ألا يفرحك أن الغرب عجز حتى الآن عن فرض ديموقراطيته الزائفة عليك ؟ إن صمودك حتى الآن فى مواجهة

الغزو الثقافى أثار إعجاب العالم كله . تحمّل ، هانت ، نحن الآن قاب قوسين أوأدنى من الهدف العظيم .

ولكن الهدف العظيم لا يأتى ولن يأتى أبدا . إن كل ما يوصف بأنه عظيم وأعظم فى الحكم الثورى ليس إلا كذبة عظمى وأعظم، واللغة هى أول ضحاياه ، فبدلا من أن تكون اللغة أداة لإدراك الحقيقة ووسيلة لنقلها إلى الآخرين ، تتحول لصوتيات الهدف منها تجنب إدراك الحقيقة أو ذكرها علنا لما فى ذلك من خطر عظيم . قد تفكر فيها أو تهمس بها لنفسك ، ولكنك ستكون على يقين من أن تصديق الأكاذيب هو ما يفرضه عليك واجب المواطنة وما يحتمه دفاعك الشرعى عن نفسك . فلسفتك فى الحياة ستكون : الجبن هو سيد الأخلاق ، أنا أصدق كل هذه الأكاذيب ...إذاً أنا موجود .

هذا الموقف السلبى سيتيح لك إلى حد كبير - السلامة ، أما إذا أردت الانتقال منه إلى درجة أعلى فى سلم المجتمع من أجل المزيد من الحماية لنفسك وأسرتك ، فعليك أن تقوم بترديد هذه الأكاذيب علنا بحماس وقوة (ياسعدك ، ياهناك، عندما تتمكن من تحويلها إلى غنوة أو مسرحية أو فيلم أو مسلسل) أما احتلال موقع فى النظام نفسه ، فلا يتطلب الاكتفاء بتصديق الأكاذيب أو ترديدها فقط ، بل يتطلب اختراع المزيد الطازج منها.

هكذا ينتهى الأمر بالبشر جميعا إلى اعتناق فكرة أن الحياة ماهى إلا كذبة كبرى ، وأى صاحب فهم مختلف عنهم بغض النظر عن صوابه من عدمه ، سيكون بالقطع واحداً من عملاء الإمبريالية العالمية أو عميلا محرضا للمباحث جاء للإيقاع بك

وفى الحالتين عليك بالإبلاغ عنه فورا .

إن الحسنة الوحيدة لهذا النوع من النظم ، إذا كانت لها حسنات ، هى أنه يمكن بسهولة فهم ردود أفعالها مما يمكن أعداءها من القضاء عليها بغير عناء ، الكذب هو التاكتيك وهو الاستراتيجى ، وهو أيضا مفتاح الشفرة الخاصة بالنظام . عندما يقول إنه يعمل من أجل الوحدة ، فلابد أن هدفه الحقيقى هو إشاعة الفرقة بين العرب . وعندما يبدى حماسا لفكرة العروبة فلاشك أنه يكن لها أشد الاحتقار. و عندما يستعرض قوته ، فلابد أنه على وعى بضعفه الشديد . وعندما يعلن أنه سيقاوم ، فمعنى ذلك أنه سيهرب فى أول فرصة ، هل سمعت من قبل أو قرأت عن نصاب قاوم السلطات عندما جاءت للقبض عليه ؟



اغتيال يوليوس قيصر وأنور السادات

اخترنا مصطلح الإعلام الفاسد ترجمة لكلمة (disinformation) إلى أن يشير علينا أحد بترجمة أكثر دقة. وبانسداد قنوات المعلومات نحن نعنى وجود عوائق وضعت عمدا أو سمح لها بالتواجد بدافع من الإهمال أو التخلف بما يعوق وصول المعلومة فى اتجاه صاعد إلى صانع القرار حاجبة عنه الرؤية اللازمة لاتخاذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب حماية للذات والدولة. وإذا كنا نتخذ من مسرحية شكسبيرية هى «يوليوس قيصر» مرجعا لنا فى التفكير والاستنباط، فذلك لأننا ندرك أن الفن العظيم يخلق واقعا أكثر صدقا من الواقع نفسه، أى أنه أوقع من الواقع إذا جاز التعبير.

سنركز فى كلمتنا على نقطتين، الأولى هى أن التآمر يحتم استخدام الإعلام الفاسد، وبذلك يكون وجود الإعلام الفاسد فى حد ذاته مهما بدا بريئا، مؤشرا إلى وجود تآمر من نوع ما، أو هو فى القليل، يغرى بالتآمر أو الاختراق. النقطة الثانية سنوضح فيها أن الفهم الشائع لدى الأكاديميين ودارسى شكسبير على مدى مئات

السنين من أن كاسيوس ، رأس المؤامرة على قيصر، كان رجلا حاقدا، وأن بروتس كان رجلا نبيلا يعمل من أجل روما، أى من أجل قضية عامة، وأنه اشترك فى حلقة التآمر لاغتيال قيصر دفاعا عن الديموقرطية التى يتهددها انفراده (المتوقع) بالحكم كديكتاتور فرد، فنحن نرى فى كل ذلك أكذوبة كبرى سنتولى كشفها بأدلة من واقع النص نفسه. إن المسئول عن هذا الفهم هو جملة أنطونيو فى آخر المسرحية التى قالها فى رثاء بروتس قبل دفنه بلحظات: هذا هو الرومانى النبيل بينهم جميعا، كل المتآمرين فعلوا مافعلوه بدافع من الحقد على قيصر ماعداه هو، هو وحده كان مدفوعا بقضية عامة، إن عناصر التوازن بين نبله وطبيعته، ستدفع الطبيعة لأن تقول..لقد كان رجلا.

لاشئ أبعد عن الحقيقة مثل الجملة السابقة التى قالها أنطونيو بوعى كامل لأهداف سياسية بحتة. هذه كذبة سياسية رائعة الهدف منها هو التهدئة والاستيلاء على أفراد معسكر بروتس المهزوم. ففى حرب أهلية أى ليست مع أعداء من خارج البلاد، عندما يهزم عدوك وينتحر، فلابد أن تعامله بما يليق به من احترام حرصا على إيقاف المعركة بينك وبين أفراد معسكره المهزومين لإعادة الوحدة إلى صفوف المجتمع، هل تتصور أن يقول أنطونيو: رحمه الله.. لقد كان وغدا كبيرا!؟

أعود إلى نقطتى الأولى، كاسيوس، رأس المؤامرة، كان أيضا على يقين من أن بروتس (النبيل) كان يحقد على قيصر للمكانة الرفيعة التى وصل إليها بعد انتصاره الأخير فى ميدان القتال. لذلك كان من السهل عليه أن يضمه إلى حلقة التآمر. ولأنه كان يدرك فاعلية وسحر الكلمة المكتوبة التى تسمى الآن (الصحافة) لذلك لجأ إليها. ليس مهما وجود آلة طباعة وأحبار وورق، تكفى خطابات بخط اليد (منشورات) أرسل واحدا منها لتوضع على مقعد بروتس فى مكتبه

بمجلس الشيوخ ، وخطابا آخر سيلصق بالشمع على تمثال فى الحديقة (التمثال لجد بروتس مؤسس الجمهورية فى روما) وخطابا ثالثا سيوضع على حافة النافذة. هى خطابات تنقل رأى الناس فى الشارع (نبض الجماهير) لكى (يعلم) بروتس أن اغتيال قيصر مطلب جماهيرى. كانت العبارات المكتوبة فى هذه الخطابات (المنشورات) قليلة وبسيطة للغاية ولكنها تفى بالغرض. لوسيوس، خادمه، وجد الخطاب الأول فأعطاه له قائلا: وجدت هذا الخطاب على حافة النافذة، وأنا واثق أنه لم يكن هناك عندما ذهبت لأنام (أى أنه وضع منذ دقائق، إذاً هو يحمل أخبارا طازجة) ويبدأ بروتس فى قراءة الخطاب بصوت مسموع: بروتس... أنت غافل.. استيقظ.. أنظرينفسك.. هل روما..إلخ.. تكلم.. إضرب.. صحح الأوضاع.. أنت نائم يا بروتس...إصح...

هذا هو ماجاء فى الخطاب،كلمات قليلة للغاية اكتفت بالإيحاء من بعيد ولكنها أكملت الدائرة فى عقل بروتس فنراه بعدها يقول: هل روما ستكون فى قبضة رجل واحد؟... ماذا؟... روما؟؟... هل أنا مطالب بأن أتكلم؟... أن أضرب؟.. أن أقوم بالتصحيح... آه يا روما، كل ماتطلبينه سيلبيه بروتس.

السؤال هو، هل كان كاسيوس فى حاجة لاستخدام الإعلام الفاسد مع بروتس بالرغم من تأكده من أنه ضمه بالفعل لحلقة التآمر؟

الإجابة: نعم..

العبقرى الشرير كاسيوس على وعى بأن (النبلاء) الوطنيين من هذا النوع الذى يعانى من الغيرة والحقد والعجز عن الفعل، فى حاجة دائما إلى من يؤكد لهم أنهم يعملون من أجل الجماهير، ويلبون مطالبها، ليس هو من سيقتل قيصر، بل الجماهير، الرأى العام، القضية العامة.

لقد أرسل كاسيوس هذه الخطابات عشية الاغتيال، اسمحوا لى

هنا بالتوقف لحظة طالبا السماح لى باستخدام تعبير بالعامية لوصف مافعله كاسيوس، لقد أراد أن (يبيّت) عليه، هو مصطلح معروف فى الأوساط العمالية، قد يحدث أن تتفق مع أحد العمال أن يأتى فى اليوم الفلانى للقيام بعمل ما، ولكنك لا تتركه، لابد أن(تبيّت) عليه، أى تذهب إليه ليلا وتنبهه لما هو مطلوب منه فى الغد، يعنى أن (يبات) ليلته مملوءا بفكرة العمل المطلوب منه فى الصباح. هكذا (بيّت) كاسيوس على بروتس فأصبح جاهزا لأن يتحول لقاتل يقتل قائدا كبيرا هو أيضا صديقه، بعد أن (علم) أن قتله مطلب جماهيرى من أجل الحرية والديموقراطية. ألم يكن كاسيوس سيفعل نفس الشئ لو كان يمتلك صحيفة ومحطة إذاعة وتليفزيونا؟ بالتأكيد كان سيفعل ذلك فى حال أن يكون الهدف المطلوب غسل مخه، أكثر من شخص، جماعة أو شعب.

قد ترى أننى أقفز قفزة واسعة عندما أقول أن كل خبر كاذب فى مطبوعة يشير إلى وجود تآمر من نوع ما، غير أننى أصر على أن تفسير ذلك بالجهل أو الغباء أو انعدام الحرفة، هو بالضبط ما أعجز عن الاقتناع به.

منذ شهر كامل قال أحد العرافين ليوليوس قيصر: قيصر... احترس من منتصف آزار...

لم يأخذ قيصر هذه النبوءة على محمل الجد، نحن أيضا لن نتعامل معها كمعلومة، ففى السياسة نحن نتعامل مع المعلومات فقط. لقد مر الوقت، ونحن الآن فى منتصف آزار فى مكان قريب من مبنى الكابيتول قبل حادث الاغتيال بدقائق قليلة، فجأة يظهر شخص يقف وحده على المسرح، هو أرتيمودراس، لم يظهر من قبل فى المسرحية ولن يظهر فيما بعد. كان يمسك فى يده بورقة أخذ يقرأمنها بصوت مسموع: قيصر... احترس من بروتس... تنبه لكاسيوس، لا تقترب من كاسكا، ضع عينيك على سنا، لا تثق فى تريبونيس، لاحظ جيدا

ماتيلاس سمبا، ديشياس بروتس يكرهك، أنت أخطأت فى حق كايوس ليجرياس، مايجمع بين عقولهم جميعا أنهم ضد قيصر، وبما أنك لست مخلدا فانظر حولك، إن الثقة الزائدة بالنفس تمهد الطريق إلى المؤامرة، لتحفظك الآلهة... المحب، أرتيمودراس.

بعد أن ينتهى من قراءة الورقة يقول: سأقف هنا إلى أن يمر قيصر فأعطيها له كما لو كنت صاحب مظلمة، قلبى يتمزق لعجز الفضيلة عن أن تحيا بعيدا عن أنياب الحقد، إذا قرأت هذه يا قيصر فقد تعيش، إذا لم تقرأها فسينجح الخونة فى مسعاهم.

بعد أن ينتهى من جملته يخرج من المسرح. بلغة عصرنا، نحن الآن أمام معلومة أمن قومى خطيرة للغاية، غير أنها فى حاجة إلى قناة اتصال سالكة لتصل إلى صانع القرار لحماية نفسه من المؤامرة، فهل سينجح؟

يصل موكب قيصر فيداعب العراف قائلا: ها قد جاء منتصف آزار...

فيرد عليه: نعم... ولكنه لم يذهب بعد..

وعندما يصل الموكب إلى حيث يقف أرتيمودراس، يمد له يده بالورقة صائحا: عاش قيصر... إقرأ هذه الورقة..

سنلاحظ أن شكسبير فى الجملة السابقة استخدم كلمة (schedule) وهى تعنى ورقة كما تعنى أيضا مخططا، تماما كما تعنيه الآن فى الإنجليزية والعربية (جدول الأعمال) ولو أن قيصرا كان أقل ثقة بالنفس وأكثر حذرا للفتت الكلمة نظره، الرجل لم يقل إقرأهذه الشكوى، أو المظلمة، أو الخطاب.

على الفور، يتدخل ديشياس وهو عضو فى المؤامرة ويمد يده بشكوى أخرى صائحا: تريبونياس يرجوك أن تقرأ شكواه...

فيلح أرتيموراس: أوه... قيصر... إقرأهذه أولا، فهى ذات صلة

بك، اقرأها يا قيصر العظيم...

ويرد قيصر: ماله صلة بنا سيكون آخر ما نهتم به...

مرة أخرى يلح الرجل فى انفعال: لا تؤجل ذلك ياقيصر، إقرأها فى الحال...

قيصر يرى هذا الطلب غريبا ويصيح: ماذا...هل الرجل مجنون...؟

ويصيح أحد الكبراء: يا أخ... تنح عن الطريق...

وهنا يتدخل كاسيوس العبقرى المتآمر ليحسم الأمر: ماذا...؟ هل تصر على أن يقرأ شكواك فى عرض الطريق؟ تعال إلى الكابيتول...

لم تصل المعلومة إلى قيصر، الهدف والضحية، لأن ديشياس وكاسيوس تدخلا فى الوقت المناسب وسدا قناة الاتصال. وابتعد الموكب فى طريقه إلى الكابيتول، ولقى قيصر مصيره المحتوم.

دعونا نتقدم الآن فى الزمن ألفى عام ونسأل: هل كان هناك خارج حلقة التآمر- من كان يعرف أن هناك خطة لاغتيال الرئيس أنور السادات؟ وماذا فعل لإيصالها؟

مرة أخرى نقابل أرتيمودراس معاصر هو العقيد إدريس حينذاك، ضابط مباحث أمن الدولة فى ضاحية من ضواحى القاهرة وهى شبرا الخيمة. فى صباح ٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨١ جاءه أحد مصادره فعنفه بشدة لمخالفته تعليمات السلامة الأمنية، غير أن المصدر قال له: كان لابد أن آتى لأبلغك أن أنور السادات سيغتال اليوم فى العرض العسكرى، وأؤكد لك أن معلوماتى صحيحة...

أجرى الضابط مكالمات هاتفية عدة وجدها غير مطمئنة فترك مكتبه وأخذ طريقه إلى وزارة الداخلية، قابل بعض زملائه فأبلغهم بالمعلومة، انهالت عليه الأسئلة: هل تثق بهذا المصدر؟

- نعم...كل المعلومات التى عرفتها عن طريقه كانت كلها

صحيحة....

: فكر يا إدريس...لو أن هذه المعلومة طلعت (فشنك) حانروح كلنا فى داهية...

- هذا المصدر لم يبلغنى بشئ غير صحيح من قبل...أنا واثق من مصدرى.

زملاؤه جميعا من القيادات الوسيطة، لابد من عرض الأمر على مسئول كبير ولكنه كان نائما فى ذلك الوقت فى مكتبه فى الوزارة بعد أن ظل ساهرا طول الليل. هناك مسئول آخر، ولكن سيترتب على إبلاغه تعقيدات إدارية وحساسيات شخصية لا لزوم لها ناقشوا الأمر بسرعة واضطراب، وأخيرا قرر العقيد إدريس أن الفرصة الوحيدة المتاحة هى أن يذهب بنفسه إلى العرض العسكري فى مدينة نصر ليبلغ الوزير أو أى مسئول كبير.

فى تلك اللحظة التى قرر فيها الضابط أن يذهب بسيارته إلى حيث يوجد العرض العسكرى، تكون ماكينة الدولة العصرية قد توقفت عن الدوران ثم عادت إلى الوراء بأقصى سرعة لتصل إلى عصر العدائين couriers الذين يحملون الأخبار ليوصلوها عدوا أو على ظهور الخيل. وصل الضابط إلى المنصة وطلب الدخول لأمر مهم، منعه رجال الحرس بالطبع، احتد عليهم واحتدوا عليه، كان من المستحيل بالطبع أن يخبرهم بما جاء من أجله، شاهد وزير الداخلية من مكانه فى المنصة ما يحدث، فيما بعد قال: كنت مندهشا ومستاء من سلوك ذلك الضابط السخيف الذى يصر على الفرجة على العرض من المنصة.

بعد هذا التصريح، لك أن تتخيل مدى ما يتمتع به الوزير من حس أمنى، ولكنها مرة أخرى أوهام القوة والثقة الزائدة بالنفس التى تمنع رؤية الخطر، إنه حتى لم يفكر فى أن يتعرف على ما يحدث بنفسه، وخاصة أن ضابطا تابعا له، طرف فى المشكلة.

وعاد إدريس محبطا إلى زملائه، كانوا جميعا جالسين فى مكتب

واحد يتابعون العرض على شاشة التليفزيون، سألوه بلهفة: قلت لهم يا إدريس؟

أجاب فى يأس: لأ... ماعرفتش أدخل المنصة، ولا عرفت أقابل أى مسئول.

فتنفسوا الصعداء وقالوا فى ارتياح: الحمد لله.. المعلومة طلعت فشنك، العرض ماشى عال العال، وكل حاجة طبيعية... إنت كنت حاتودينا فى داهية يا إدريس.

فى تلك اللحظة، استمعوا إلى طلقات الرصاص تدوى فى جهاز التليفزيون...واغتيل الرئيس السادات.

سأتوقف هنا لحظات أتناول فيها سلوك الضابط بالتحليل، الرجل كان واثقا من مصدره، وبإحساس قوى بالواجب قرر أن يذهب إلى آخر الشوط ليبلغ بما يعرفه، ولكنى أتصور أنه جاءت عليه لحظة انتابه الشك فى صدق المعلومة التى وصلته، ففى جو العرض العسكرى وصخب الاحتفال ومظاهر الثقة والقوة والانضباط التى تسود المكان، كان لا مفر من أن يشك فى صدق ما يعرفه. بالتأكيد استولى عليه الإحساس بأنه وحده الذى يعارض هذا الكيان الكبير الذى يتسم بالقوة والجلال، فقرر أن يتراجع، وربما تمكن من إقناع نفسه بما يتمناه، وهو أن المعلومة كاذبة، لقد تأخر وقت الإبلاغ، العرض بدأ فعلا، حتى لو تمكن من إيصال المعلومة طبقا لما يحتمه الواجب، فالله وحده يعلم مدى الاضطراب الذى سيتسبب فيه. لقد قال بيرون من قبل إن المعرفة هى شجرة الأسف، وهى فعلا كذلك.

انسداد قنوات الاتصال المعلوماتية أدى إلى اغتيال الزعيمين، فى حالة يوليوس قيصر، تدخل عمدا أفراد من حلقة التآمر لمنع المعلومة من الوصول. وفى حالة السادات تدخل التخلف...التخلف أيضا يتيح للمتآمرين الاختراق والوصول إلى الهدف.



الأسماء كلها

ولدت بعاهة، قدمي اليسري كانت ملتوية لأسفل وجه القدم كان ملتويا علي باطنها في شبه كرة. قالت جدتي: هذا قضاء الله ولا راد لقضائه.

وقال أبي لجدتي وأمي: اذهبا به فورا إلي مستشفى قصر العيني.

أصيبت جدتي وأمي بالفزع من كلماته التي تفتقر إلي التسليم بقضاء الله، ورفضتا اقتراحه. حاول لشهور عدة إقناعهما بأن هذا ليس قضاء مبرما أو قدرا محتوما، بل هو بلاء من الله يختبر به قدرتنا علي حماية مخلوقاته، إذا كانت هناك فرصة في أن يسير هذا المخلوق بشكل طبيعي كما تسير مخلوقات الله، لماذا لا نستغلها؟

لكنهما تشبثتا برأيهما، فأخرج مسدسه وقال لهما بهدوء: إذهبا به إلي مستشفي قصر العيني وإلا قتلته الآن.

ذهبتا بي إلي المستشفي وطلب منهما الأطباء أن يعودا بي بعد

فترة محددة، وأصلح الأطباء القدم ووضعوا ساقي في الجبس ثم فصّلت لي المستشفي حذاء خاصا يقوّم القدم ويساعدها علي العودة إلي طبيعتها، كان عمري أقل من عامين، لكني مازلت أذكر بوضوح ذلك الحذاء الصغير المتين، كما أذكر تلك اللحظات التي كنت أنظر فيها إلي الناس في ميدان سيدنا الحسين من أعلي، من فوق كتف جدتي.

وفي الصف الأول الإبتدائي، قال لي طفل مستنير، في الغالب أصبح مثقفا ثوريا فيما بعد، قال لي: يا خسارة.. لو أنك ظللت صاحب عاهة، إذاً لأصبحت عبقريا، مثل طه حسين.

في تلك اللحظة البعيدة شعرت بالاستياء مما فعله بي أبي، لقد حرمني من العبقرية بإصراره علي التخلص من عاهتي.. قد تسخر من منطق ذلك الطفل الذي تصور أن طه حسين كان عبقريا لمجرد أنه كان أعمي. وقد تشعر بالاحتقار لهؤلاء الذين ألحقوا عاهات بأنفسهم ووقفوا يشحذون بها في إشارات المرور. ولكن، ما رأيك دام فضلك في زعماء ثوريين ألحقوا بأنفسهم وبشعوبهم أفظع العاهات. لكي يحصلوا منا علي الاعتراف بعبقرية الزعامة.

أعود للحديث عن جدتي:

كانت الأمراض في ذلك الوقت من ثلاثينيات القرن الماضي تقتل الناس بسهولة، خصوصا الأطفال منهم وذلك قبل ظهور المضادات الحيوية، لكن جدتي كانت لها طرق في علاجي يمكن وصفها بأنها ناجحة، بدليل أنني، حتي الآن، حي أرزق في شكل أو آخر. ذات ليلة اشتدت علي الحمي، وفوجئت بجدتي تقص

ورقة في هيئة إنسان ثم أمسكت بإبرة وأخذت تحدث بها ثقوبا في الورقــة وهي تهمس بكلمات خافتـة، أرهفت السـمع، كانت تقول: في عين نفيسة، في عين علية، في عين إحسان، في عين أم أحمد، في عين أم عبده، في عين أم زينب.

سألتها عن معني ذلك فقالت: أصلك اتنفست.

تطلب الأمر مرور عشرات الأعوام لكي أعرف معني ما كانت تفعله جدتي، (أتنفست)، يعني أن نفسا شريرة داخلت أو دخلت نفسي. لقد كانت تمارس طقسا عرفه الإنسان البدائي منذ عشرات ألوف السنين، فبعد مرحلة الطوطم والتابو جاءت المرحلة السحرية، العالم تحركه الأرواح الشريرة والطيبة التي تسكن كل إنسان ونبات وجماد. وبالكلمات، بالتمائم والتعاويذ يمكن السيطرة علي هذه الأرواح أو استرضاؤها أو مقاومتها أو إبعادها. سيقول كلمات معينة فتحولها طبيعة العالم السحرية علي الفور إلي فعل مجسد علي الأرض. سيقوم بحركة معينة فتقلده الطبيعة. لا داعي لأن تتجشم جدتي عناء الذهاب إلي أم عبده وأم زينب والست علية لكي تفقأ أعينهن التي هي مصدر الشر الذي أصاب بالمرض المحروس ابن بنتها، يكفي أن تأتي بورقة على هيئة إنسان ثم تقوم بالفعل وتنطق بالكلمات فيتحقق ذلك في الطبيعة.

كانت مظاهر الحياة وظواهرها حول الإنسان البدائي غير مفهومة، لذلك كان من الطبيعي أن تكون كلماته السحرية ايضا لا معني لها. من الطبيعي أيضاً أن نتعامل مع الغامض بوسائل تماثله غموضا. الفهم السحري للظواهر مريح للغاية. الأشجار

تنمو لأن أرواحا تنمو في داخلها، الرياح تهب لأن أرواحا تنفخ فيها، والبراكين تثور لأن أرواحا شريرة اشعلت نارا لتطهو شيئا أو لكي تتدفأ عليها.

اعتقد أن نظرية المؤامرة اثر متبق في العقل البشري من هذه المرحلة السحرية، لم تعد الأرواح الشريرة هي التي تفعل الأشياء الضارة بل الأمبريالية. المرحلة السحرية، هي نفسها مرحلة إنعدام المسئولية، بالتأكيد كان الإنسان يشعر بالجوع والعطش والحب والكره، لكنه بالتأكيد لم يكن يشعر بأنه (مسئول) عن شيء. من المستحيل أن نفهم العلاقة بين الظواهر المحيطة، بغير إحساس سابق بالمسئولية عن البيئة المحيطة بنا، عن الحياة. الإنسان يعرف لأنه يريد أن يعرف، وفي غياب هذه الإرادة سيشعر الإنسان بارتياح كبير عندما يريح رأسه علي وسادة الجهل الناعمة.

أعرف أن في داخل العقل البشري غرفا كثيرة تنتمي لكل مراحل ماضي البشر، وأننا نستطيع بسهولة العثور علي آثار من طقوس بعيدة مازالت تمارس في الحاضر، لكن أهم ما يميز هذا العصر هو إحساس الإنسان بالمسئولية عن بيئته، التي هي الكرة الأرضية، بل الكون كله. من الخطر للغاية أن تظل الكلمات محتفظة بطبيعتها السحرية، لابد أن تكون معبرة بوضوح عن فعل، راسمة له، ومؤدية إليه. أفكر في أن سيدنا آدم تعلم الأسماء كلها بينما حرصنا نحن علي تعلم الصفات فقط، وذلك للهروب من مسئولية الفعل الذي يحتمه الوعي بالأسماء. سأعطي مثالا: شخص مرموق، طالب الرؤساء والملوك العرب في صدق شديد

وغضب أشد، طالبهم بأن يتخذوا اجراء (فعالا) فعالا ليست إسما، بل وصف لفعل. ما هو علي وجه التحديد؟ ليس مهما، لأن الأرواح في العالم السحري ستفهم ما يريد وتنفذه علي الفور. فيما يختص بالفعل الخاص، نحن نستخدم الاسماء بدقة وبكل ما نملك من قدرة علي التحديد، فأنت تجلس في المطعم وتطلب كيلو كباب وكفتة بل تحدد نوع اللحم، إن كان من الضأن أو البتلو، وتحدد أطباق المقبلات التي تريدها. أما في السياسة (العمل العام) فنحن نطلب من الرؤساء والملوك العرب (أن يتخذوا قرارات تتفق وسقف التوقعات عند الجماهير العربية). هذا وصف للقرارات المطلوبة، ولكن ما هي بالتحديد؟ لاحاجة لذلك، فالأرواح الطيبة في العالم السحري ستأخذ هذه الجملة وتترجمها علي الفور إلي الفعل المراد، أريدك أن تتصور شخصا ذهب إلي شركة طيران وقال للموظف: من فضلك.. أريد أن أسافر إلي مدينة ذات مساء وردي الشرفات.

أمر جميل وشرعي وعادل أن يسافر الإنسان إلي مدينة ذات مساء وردي الشرفات، لكنه سيعجز عن ذلك حتما إذا لم يعرف اسم هذه المدينة. كما أن مواجهة ما نتصوره شرا علي طريقة جدتي ليست أكثر من مضيعة للوقت وأرواح البشر، عدد كبير من الكتاب يقصون أوراق الكتابة في هيئة كرة أرضية، ويجعلون من أقلامهم أبرة يطعنون بها الورقة وهم يتمتمون: في عين الرئيس بوش، في عين السلام، في عين التسويات، في عين كولن باول، في عين ديك أم تشيني، في عين هننجتون، في عين أم فوكوياما. في عين كونداليزا رايس، فى عين كل الأوغاد الذين قتلوا الهنود الحمر، وضربوا اليابان بالقنبلة الذرية.

الفرق الوحيد بين العالم السحري القديم والعالم الحديث، هو أن القديم كانت فيه أرواح طيبة تخف لنجدة البشر في معاركهم مع الأرواح الشريرة، أما الآن، فإن الأرواح الطيبة، دفنت جميعا تحت حجارة سور برلين.

لا مفر من أن نبدأ من نقطة البداية، أن نتعلم الأسماء كلها، وأن نتحمل مسئولية النطق بها.



الطريق الصحيح إلى جهنم

فى المذبح، منتصف الأربعينات، عدد من الرجال الأشداء انقضوا على جمل وأناخوه ثم أمسكوا به بقوة، أناموه على جانبه، اقتربت سكين الجزار من رقبته، وفجأة انتفض الجمل واقفا بقوة هرقلية فأوقع الرجال حوله على الأرض واخذ يجرى صارخا مخترقا المذبح فى طريقه إلى الشارع. جرى الجزارون خلفه ولكنه كان أسرع منهم، من حى المذبح الشهير إلى ميدان السيدة زينب، فشارع خيرت وهم يعدون خلفه بعد أن انضم لهم مئات البشر. فى اندفاعه أوقع الكثيرين من خلق الله على الأرض إلى أن وصل إلى ميدان لا ظوغلى ثم اندفع فى شارع نوبار، وعند تقاطعه مع شارع الشيخ ريحان، انعطف يمينا فى ثقة وكأنه يعرف خط سيره جيدا. فى نهاية الشارع يقع قصر عابدين، اقتحم بوابة القصرالملكى المواجه للميدان قبل أن يتنبه أحد الحراس إلى مايحدث ، وحتى لو تنبه أحد، كان من المستحيل إيقافه بغير إطلاق النار عليه وهذا أمر مستبعد تماما. وفى ساحة القصروقف متطلعا إلى شرفة القصر الرئيسية العريضة وهو يصرخ باكيا. فى هذه اللحظة خرج جلالة الملك فاروق إلى الشرفة بعد أن شدت الضجة انتباهه. ألقى جلالته نظرة سامية على الساحة فرأى الحراس

يحيطون بالجمل بينما الجماهير محتشدة خلف الأسوار. أدرك على الفور أبعاد الحكاية، هذا الجمل جاء يستنجد به، فصاح فيهم بصوت قوى كالرعد: اتركوه...هو فى حمايتى.

على الفور جلس الجمل مكانه على الأرض وهو يبكى بصوت خافت فى ارتياح بعد أن أنقذه من الموت مولانا فاروق المعظم ملك مصر والسودان .

كان من الصعب على طفل فى الثانية عشرة من عمره انتهى لتوه من قراءة «الفرسان الثلاثة» و«ذهب مع الريح» و«الجريمة والعقاب» و«كل شئ هادئ فى الميدان الغربى» وغيرها، بعد أن أنهى من قبل مقررات أرسين لوبين وأجاثا كريستى، وقضى ليالى طويلة يحلم بأن يكون له ذكاء شرلوك هولمز وهركيل بوارو وشارلى شان، كان من الصعب على ذلك الطفل أن يصدق هذه الحكاية التى سمعها من أمه. خط سير الجمل صحيح تماما فكثيرا ما مشيت فيه مع جدتى. ولكن، كيف عرف الجمل أصلا عنوان الملك؟ وماذا حدث للجمل بعد ذلك؟ هل تم تسليمه للجزار بعد أخذ التعهد عليه بعدم ذبحه ؟ أم أن مولانا أصدر أمرا بضمه لجمال القصر؟ أم أنه ألحقه بسلاح الهجانة؟ وإذا كان مولانا حل مشكلة هذا الجمل، فماذا عن بقية الجمال والبقر والخراف والمعيز التى تجهل عنوان جلالته ؟

إليك قصة أخرى من ذلك الزمن البعيد أكثر نضجا وحبكة درامية وتصلح للكبار والصغار.

بعد الغروب بلحظات، كان مولانا عائدا من أنشاص وهو يقود سيارته بنفسه، كان بمفرده، وعلى الطريق الزراعى أشارت له سيدة ريفية تحمل قفة على رأسها بعد أن تصورت أنها سيارة أجرة فتوقف لها . طلبت منه أن يوصلها إلى القرية التالية فنزل من

السيارة وحمل عنها القفة ووضعها داخل السيارة. وعند المكان الذى طلبت منه التوقف عنده، نزل وساعدها فى وضع القفة على رأسها وعندما سألته عن الأجرة المطلوبة قال لها بلطف: لا شئ..واسمحى لى أن أدفع لك أنا...

وضع مولانا يده فى جيبه وأخرج جنيها أعطاه لها. حدقت المرأة فى الجنيه غير مصدقة ثم تفرست فى وجه السائق ففوجئت أنه نفس الشخص المرسومة صورته على الجنيه فصاحت: مولانا....

فى الغالب ، كانت المرة الأولى التى تتعرف فيها هذه السيدة على ملامح الجنيه وربما على ملامح الملك أيضا. تطلب الأمر مرور عشرات الأعوام لأعرف أنه يوجد فى السياسة ما يسمى بإعلام «تحسين الوجه» وأن كل حكومات الأرض تمارسه . هو عنصر أساسى من عناصر الحكم تماما كما أن الكحل عنصر أساسى فى تزيين العينين. وبذلك يكون المثل الشعبى الذى استحضرته فى ذهنك الآن وهو (جه يكحلها، عماها) صحيح. لابد فعلا من خبرة كافية وحساسية فائقة لتكحيل العينين حتى لا يحدث لهما مكروه. المحتوى الإعلامى للقصتين واضح، الرحمة، التواضع،الكرم، الرغبة القوية فى مساعدة الناس وحمايتهم حتى لو كانوا جمالا.

أما تحسين الوجه عن طريق إشاعة فكرة(القوة) فقد خصصت له حكايات أخرى كان يحكيها العارفون ببواطن الأمور. منها أنه لا يأكل الحمام مشويا أو محشيا مثل خلق الله ـ أقصد طبعا المؤهلين لأكل الحمام ـ بل يسلقون له خمسين حمامة ويركزونها تركيزا شديدا حتى يحتسيها فى كوب واحد. ومنها أيضا أن الشعر فى ذراعيه وصدره من الممكن أن يجرح الآخرين، إذ له قوة الأشواك وصلابتها .

وفى كل ألعاب الطفولة، لم تكن سيرة قوته تفارق أذهاننا، هل

تستطيع القفزمن فوق هذا السور؟ هل تستطيع القفز من فوق هذا الجدار؟ هل تستطيع السباحة إلى بر النيل الآخر ؟ إذا استطعت ذلك ، فسنسميك ابن الملك .

وبالرغم من كل تلك الهالة من القوة والتبجيل، بعد ذلك بأعوام قليلة، مشينا جميعا فى مظاهرات تشتمه و توجه إليه إهانات مروعة، ثم بعد ذلك بأعوام أقل، ذهب أحد الناس إليه فى قصره الصيفى فى الإسكندرية وقال له: بخ....

فترك البلاد على الفور وأبحر مذعورا إلى إيطاليا. لم تنفعه كل أكواب الحمام المركزالتى شربها، كما لم يشفع له موقفه العظيم مع السيدة حاملة القفة ولا شهامته الرائعة مع الجمل .

صانع الرسالة الإعلامية من هذا النوع، موهوب وحاد الذكاء وقادر على صنع حبكة درامية مؤثرة أو يظنها مؤثرة. ولكن نقطة ضعفه الوحيدة هى أنه يبنى حساباته على وجود كتلة بلهاء هائلة الحجم لا يمكن التأثير فيها بغير هذه الحواديت. يترتب على ذلك، أن الانشغال الدائم بتأليف حواديت بلهاء وإشاعتها، يوقعه هو نفسه فى دائرة البلاهة والضعف مهما كانت درجة ذكائه فلا يتنبه لعناصر الواقع كما هى عليه وما يحدث فيه من متغيرات تتطلب مواجهتها عملا جادا وشاقا ، فتكون النتيجة أن تأتى لحظة تفشل فيها كل حواديت الدنيا فى التعامل مع هذا الواقع.

ومرت الأعوام، مرت ثلاثون عاما على الأقل مليئة بالأحداث الجسام ، حرب فلسطين، حريق القاهرة، الثورة، طرد الملك، الصراع على الحكم واختفاء محمد نجيب، اختفاء البورجوازية والأرستقراطية المصرية، نهاية الإقطاع، بزوغ نجوم جدد فى المجتمع هم العمال والفلاحون والمثقفون والرأسمالية الوطنية ـ تمييزا لها عن تلك الرأسمالية بنت الكلب التى كانت موجودة قبل

الثورة ـ الوحدة مع سوريا، الانفصال عن سوريا، حرب اليمن، نكسة ١٩٦٧، حرب الاستنزاف،وفاة عبد الناصر، السادات فى الحكم، ثورة التصحيح، الحكومة كلها تدخل السجن، طرد الخبراء السوفييت، وبداية تفكيك العلاقة مع المعسكر الشرقى، حرب أكتوبر..وآلاف،آلاف الأحداث الكفيلة بإحداث تغيير شامل فى آليات العقل عند أى مخلوق وكل مخلوق،ومع كل ذلك ، استيقظنا ذات صباح فى منتصف السبعينات، لنقرأ أن موكب الرئيس السادات كان مارا فى أحد الشوارع، فوجد شخصا ينتظر الأتوبيس ، فأركبه معه. كانت مصر فى ذلك الوقت تعانى من أزمة مواصلات طاحنة، ولكن السادات لم يكن وحده، فقد صودف أن كانت كاميرات الصحافة تتبعه. مرة أخرى عادت قصة الملك فاروق والسيدة صاحبة القفة تطل برأسها فى نص أكثر ضعفا وركاكة. وتعليقا على هذه الواقعة، نشر الرسام حجازى رسما من أجمل وأشجع ماعرفه فن الكاريكاتير فى مصر. موكب طويل من السيارات السوداء الفخمة التى يستخدمها كبار المسئولون تحيط بها الموتوسيكلات ثم شخص يقف بعيدا عن الموكب يسأل عما يحدث فيرد عليه زميله: لا أبدا..ده بيوصلوا واحد مش لاقى مواصلات.

أرجو ألا يظن أحد أننى قد تخليت عن إعجابى بالرئيس السادات ، مبادرا ومفاوضا وصانعا للحرب والسلام، وهو ما يعنى اكتشافه فى الوقت المناسب، أن الطريقة الوحيدة لتحسين الوجه، هى الفعل الحقيقى الواضح النبيل مهما كانت الأخطار.

لست أتهم أصحاب هذا المنهج بالشر أو سوء النية، على العكس من ذلك،هذا المنهج يفيض بقدر من حسن النية كفيل بأن يقود أى جماعة فى الطريق الصحيح إلى جهنم. وإليك هذا المثال، خبر نشر

منذ أعوام فى الصفحة الأولى (تاريخ النشر،وإسم الجريدة، لاأهمية لها، فالتشهير ليس هدفى) الخبر يقول أن الخبراء المصريين تمكنوا من صنع آلة قادرة على تحويل القمامة إلى بترول ..!!! فى أقل من عشرين دقيقة. الرسالة الإعلامية هنا واضحة كما يظنها صاحبها، أيها المواطن لا تقلق..الثروة هذه المرة لم تنزل من السماء أو تطلع من تحت الأرض، أوتتحقق نتيجة العمل الشاق، هى موجودة أمام باب شقتك ، وفى الشارع ، وفى مقالب الزبالة. فى دقائق ستتحول إلى بترول...وداعا لكل أنواع المشاكل .

إن كل حواديت تحسين الوجه من هذا النوع،تنبع فى عقل صاحبها من تقاليد حكومات فاشية ولى زمانها، وهى حتما تقود إلى الفشل والخسارة. فحتى بافتراض وجود كتلة بلهاء، لاشك أن الشرف الإنسانى والواقع السياسى العملى يحتمان أن نرفع عن هذه الكتلة بلاهتها بتقوية قدراتها النقدية، وذلك بمصارحتها بكل الحقائق مهما كانت مؤلمة. فى هذا العصر يستحيل تحسين أى وجه بغير أفعال تعود على الناس (فعلا) بالخير، وهو مايحتم أن يشترك الناس فى صنع هذا الخيربإتاحة الفرصة لهم لمناقشة طريقة الوصول إليه فى جو محرر من القلق والخوف والشك.



النكتة المصرية ومواقفها من السياسة

روح المرح مؤشر حقيقي يمكن التعرف بواسطته علي درجة (الذكاء العام) ارتفاعا وهبوطا، وربما كانت ايضا دلالة قوية علي الانشغال بالهم العام بما يترتب عليه من رغبة في التعرف علي الحقيقة والقدرة علي النفاذ إليها في تكثيف وتركيز شديدين، محققة بذلك هدفها الرئيسي وهو تخفيف التوتر، غير أن أهم ما يميزها - وهو ما يعنينا في هذا المقال - فهو أنها (روح المرح) وثيقة الصلة بالملكات النقدية في العقل البشري، بل قد تكون نتاجا مباشرا لآلياته صعودا وهبوطا، وجودا وعدما ، سكونا وحركة.

وإذا كان الحكم هو عنوان الحقيقة كما يقول القانونيون، فالتعليق المرح والنكتة أعلي درجاته، هو الحقيقة نفسها كما يراها العقل الجمعي، هو حكم موضوعي يتناول موقفا حياتيا بكل أبعاده الاجتماعية والسياسية فيختزله بسرعة إلي عناصر واضحة تشكل موقفا نقديا يفجر الضحك، أو في القليل، ينتزع الابتسامة.

من هنا تأتي خطورة الإنعدام أو التلاشي التدريجي لروح المرح

في مجتمع ما، فإن ذلك يكشف بجلاء عن ضعف أو صدأ في آليات النقد داخل العقل الجمعي، ويا له من موقف بائس عندما تضطر لشرح نكتة لشخص ما، فتجد نفسك أشبه بشخص يرسل إشارة استغاثة إلي جهاز لاسلكي مغلق.

وفي أجواء الاحتفالات الأخيرة بثورة يوليو في مصر، كان من الطبيعي أن احتفل بالجزء الخاص بي، وهو تأثيراتها علي روح المرح الجمعية، ماذا كانت الأحكام التي أصدرها العقل الجمعي في سنواتها الأولي، والذاكرة هي مرجعي الوحيد، إذ لا توجد مراجع موثوقة لذلك.

كنت في ذلك الوقت أعيش في دمياط، وهي مدينة قديمة تقع علي فرع النيل علي بعد ١٥ كيلو متراً من البحر الأبيض، قد يدهش الجيل الحالي عندما أقول له، إن دمياط كانت تصدر الأحذية إلي إيطاليا والأثاث إلي فرنسا، وذلك في الاربعينيات بعد نهاية الحرب العالمية مباشرة، ولكن الانشغال بالعمل والاتقان لم يمنعهم بل لعله هو الذي دفعهم للإنشغال بالهم العام، كان معظمهم وفديين، اذكر أن النكتة (الثورية) الأولي كانت عن مشادة حدثت في اتوبيس بين محصل وعسكري في الجيش، اتسعت الخناقة واشترك فيها عدد كبير من الركاب، كلهم اشتركوا في ضرب العسكري، اقتيد الجميع إلي قسم الشرطة، واخذ المحقق في استجوابهم، كل منهم كان لديه سبب يبرر به اعتداءه علي العسكري، إلي أن سأل أحدهم: تعرف العسكري ده؟

- لأ..

● بينك وبينه حاجة؟

- لأ

● لماذا ضربته إذاً؟

فأجاب الرجل: أصل لقيتهم بيضربوه، فقلت دي الثورة خلصت فرحت نازل فيه ضرب.

طاف رجال الثورة بكل مدن الوجهين البحري والقبلي. وفي دمياط، أثناء زيارتهم لمصنع الغزل والنسيج، سأل عبدالناصر أحد العمال: إيه رأيك في الثورة يا أسطى؟.

فأجاب: والله يا فندم ثورة واحدة مش كفاية.. احنا نفسنا في واحدة ثانية كمان.

كان اللواء محمد نجيب هو الزعيم والرئيس وقائد الثورة، تحمس الناس له بشدة، وكانت شعبيته فوق الوصف. أحد الحلاقين تحمس بجنون لمحمد نجيب وغير اسم دكانه إلي (حلاق محمد نجيب). وفي مارس ١٩٥٤ حدث الصراع الشهير بين مجموعة عبدالناصر ومجموعة نجيب، وهو الصراع الذي انتهي باختفاء نجيب وبقاء عبدالناصر. ولكن الحلاق الشجاع استمر علي موقفه المؤيد للزعيم المختفي، وقال لأهل الشارع أن لافتة المحل التي تحمل اسم نجيب ستظل في مكانها إلي الأبد، وزار رجال الثورة دمياط فنصحه بعض الناصحين بأنه لا داعي للمتاعب وأنه من الواجب عليه تغيير لافتة الدكان، غير أن الرجل أصر علي موقفه المتهور، وأنه لن يحذف اسم محمد نجيب من فوق دكانه مهما كانت المتاعب التي سيتعرض لها. وصل موكب رجال الثورة إلي الشارع التجاري وهو الشارع نفسه الذي يوجد فيه الدكان. بدأت النصائح تتخذ طابعاً حاداً: يا عم نزل اليافطة.. حاتروح في داهية، ولكنه رفض في إباء وشمم. امتار عدة تفصل الآن موكب الثورة عن الدكان، فجأة امسك الرجل بقطعة طباشير وصعد علي سلم خشبي وكتب كلمات عدة بسرعة، فتحولت اللافتة إلي (حلاق محمد نجيب الشهير بجمال عبدالناصر).

لعلها كانت النكتة الأولي التي تشير إلي بداية سيطرة الرعب

علي عقول الناس، ومن ثم محاولة اللعب علي الحبال طلباً للنجاة. الغريب في الأمر انني لا أذكر ظهور نكتة واحدة علقت علي طرد الملك فاروق من مصر، مما يدل علي أن النكتة عند الشعوب القديمة تتعامل فقط مع موقف يثير الضيق والتوتر بهدف استعادة التوازن النفسي للجماعة. بالطبع ظهرت أطنان من الكتابات تدين فاروق مصورة إياه علي أنه شيطان رجيم، غير أنه من الواضح أن المصريين وجدوا أنه لا يستحق نكتة واحدة، طبقا لقاعدة أن الضرب في الميت حرام. هكذا تتعفف النكتة عن تناول المهزومين الضعفاء، هي فقط توجه قذائفها إلي السدود القوية التي تعترض السير الطبيعي لتيار الحياة،بهدف إزالة هذه السدود المسببة للإحتقان والتوتر في العقل الجمعي.

اختتم هذه المرحلة بقطار الرحمة، إذ تمّ حشد كل فناني مصر المشهورين في قطار ليقيموا احتفالاً في كل مدينة، ويجمعوا الأموال والمصوغات والتبرعات العينية، لتكون محطة القطار النهائية هي غزة دعماً للشعب الفلسطيني. كل هذه الأموال والتبرعات (لست أعرف الطريقة التي تم بها توزيع المصوغات علي اللاجئين في غزة، ولكن هذا ليس موضوعي) ستنزل في محطة غزة، وظهرت النكتة تقول إن الدمايطة رفعوا لافتة (دمياط) من علي محطة السكة الحديد ووضعوا بدلا منها لافتة أخري كتب عليها (غزة). أريدك أن تلاحظ أن تغيير (اللافتة) كان العامل المشترك بين هذه النكتة ونكتة الحلاق. فقطار الثورة يمضي الآن في طريقه بثبات ومن المؤكد أنه سيدوس كل من يقف في طريقه، والأمل الوحيد في تفادي الخطر أو للحصول علي كسب هو تغيير اللافتة، المهم هو أن يفرغ القطار شحنته الثمينة في محطتك.

وتتوالي انجازات الثورة وانتصاراتها فتختفي النكتة ذات البعد السياسي مخلية الساحة للنكتة التقليدية التي تتناول أخطاء

البشر العاديين.

ومع إنجازات وانتصارات الثورة المتلاحقة تحولت روح المرح إلي إحساس طاغ بالفرحة والرضا عن النفس، فبدأ الصدأ يعلو أجزاء ماكينة القدرّات النقدية داخل عقول البشر، بعد أن توقفت عن الدوران أو كادت، أنه ذلك الشعور الجميل بالارتياح الذي تشعر به الجموع عندما تتخلص من عبء الحرية. فالحرية بطبيعتها تفرض علي الفرد التزاما ثقيلا بالمسئولية، وتذويب فردية الإنسان داخل حركة الجموع يرفع هذا الإلتزام عن كاهله، لا داعي للقلق، هناك شخص واحد قوي ومعه كوكبة من الرجال الشجعان الأطهار وهم جميعا لا يخطئون. هم يعرفون جيدا مصلحة هذا الشعب ورغباته وأحلامه وسيحققونها جميعا له. ويعد توالي ظهور الثورات العسكرية في المنطقة، انقسم العالم إلي قسمين: ثوار نبلاء ورجعيون أوغاد .. أبيض واسود. صدر قرار بإلغاء ألوان الطيف، وأنت محظوظ، حسن طالعك جعل منك ثائراً، نبيلا، تقدميا، في تلك اللحظة لن تري في أي خطأ، خطأ، وبالتالي لن يوجد سد منيع يوقف تيار الحياة مما يضطر العقل الجمعي لصنع نكتة ضده. فوجود الخطأ في حد ذاته لا يصنع النكتة، بل استيعاب هذا الخطأ الذي يتطلب بدوره قدرات نقدية عالية. حتي هؤلاء الذين عذبوا في المعتقلات كان معظمهم يعتقدون أن ما يحدث لهم لا يرقي إلي مرتبة الجريمة أو حتي الخطأ البشع، كانوا يرونها مجرد تناقضات ثانوية مع النظام لا تنفي وحدة الهدف وهو القضاء علي الاستعمار والإمبريالية. صحيح أن الاستعمار رحل، ولكنه لفرط خبثه ترك ما يسمي أذناب الاستعمار وعملاء الاستعمار المتحالفين مع الرجعية العربية، ولا تنس فلول الاقطاع ثم الأوغاد عناصر الثورة المضادة. المهمة مازالت شاقة إذ تتطلب التضحية بالذات الفردية من أجل الجموع. إن إحساسك بالألم لتعذيبك منهجيا في

معتقل ليس أكثر من أحاسيس بورجوازية تمنعك من إدراك أن تلك ليست أكثر من ضريبة تافهة تدفعها من أجل الثورة العالمية. لا حد لقدرة الإنسان علي خداع الذات عندما يفقد إحساسه بفرديته، عندما يفقد إحساسه بكبرياء الحرية. غير أن هؤلاء الذين عاشوا هذه الفترة يدركون تماماً أن الإحساس السائد بالرضا الجمعي عن النفس نتيجة للشعور بالعزة والكرامة كان يبطنه إحساس قوي وناعم بالخوف. غير أن هذا الإحساس بالخوف فشل هو الآخر في إنتاج نكتة واحدة في السنوات من ١٩٥٦ إلي سنوات الستينيات الأولي، وذلك لأن الناس تعاملت مع هذا الخوف بوصفه الخوف الطبيعي من الدولة. فكل المجتمعات في كل مراحل التاريخ يعرف مواطنوها درجة من الخوف من سلطات الدولة، أنه الخوف الشرعي الذي يدفع المواطن إلي احترام القانون.

ولكن بارتفاع منسوب الخوف تبدأ مرحلة يمكن تسميتها بروح المرح الهامسة، لم تكن النكتة فيها موجهة ضد النظام أو راغبة في إدانته، بل كانت تحذر في رقة وعذوبة مما يمكن أن يحدثه القمع من آثار ضارة بالناس. من ذلك، تم القبض في أحد الشوارع علي مواطن يحمل كمية من المنشورات، وفي مكتب رئيس المباحث قال: هذه ليست منشورات.. هذا ورق أبيض..

فصاح فيه الضابط في سخط: نعم..؟ هو حضرتك كنت عاوزنا نستني عليك لحد ما تكتبه؟

وعندما يختلط القمع بالأزمات التموينية، تجعل منهما النكتة هدفا واحدا. في اجتماع موسع للقاعدة الشعبية في الاتحاد الاشتراكي وقف أحد المواطنين يسأل مسئولا كبيرا: نحن نعاني نقصا شديدا في السلع التموينية .. فين الرز.. فين العدس .. فين الفول.. فين السكر.. فين الزيت؟

فرد عليه المسئول الكبير: نعم.. القيادة تعرف كل ذلك، غدا

سأرد عليك وأعطيك بيانا بالجهد الذي نبذله لتوفير تلك السلع.

وفي اليوم التالي وقف عضو آخر يسأل: فين الرز..فين العدس .. فين السكر... وفين الراجل اللى كان بيسأل إمبارح؟

في المرحلة نفسها كانت الحكومة تحذر الناس كثيراً من الاستماع إلي الشائعات الكاذبة، وكان من المستحيل التفريق بين الشائعة الحقيقية والأخري الكاذبة، لسبب بسيط هو أن الشائعة لا يمكن أن تكون إلا كاذبة، هي بالتعريف كاذبة، فيظل السؤال هو كيف تعرف أن ما تسمعه الآن شائعة فيما لا أحد يكتب أي معلومة حقيقية حتي لا يعرفها الأعداء. هكذا تم تطويع العقل لاعتناق فكرة أن كل الحقائق يستفيد منها العدو، وبذلك تكون وطنيا بقدر قدرتك علي عدم ذكر الحقيقة في حال أن تعرفها، وكان لابد للنكتة أن تتدخل، قيلت شائعات كثيرة عن عبدالناصر فغضب غضباً شديداً وطلب من أجهزته أن تأتي له بذلك الوغد الذي يروج كل هذه الشائعات فقبضت عليه فعلا (لاحظ تسليم العقل الجمعي بقوة الاجهزة المعلوماتية) واحضروه إلي مكتب عبدالناصر الذي تمالك أعصابه وسأله في غيظ: هل أنت قائل كل هذا الكلام..؟ بقي انا، عبدالناصر الذي قضي علي الإقطاع وطرد الملك، وخلصكم من الاستعمار والرجعية ووضع فيكم العزة والكرامة.

وهنا قاطعه الرجل: شفت يا فندم، أهو حضرتك اللي بتقول.. مش انا.. والله العظيم انا ما قلت كلمة واحدة من الكلام ده كله.

فكرة الاعتراف القسري ايضا حظيت بنصيبها من النكتة: عثر العلماء علي تمثال فرعوني لملك قديم وفشلوا في معرفة اسمه. أحد كبار المسئولين طلب منهم أن يتركوه مع التمثال في قبو المتحف، وبعد ساعات عدة خرج وهو يتصبب عرقا وقال لهم: التمثال للملك سخت رع.

فصاحوا في إعجاب: كيف عرفت؟

فأجاب وهو يجفف عرقه: اعترف..

قيل ايضا إن عبدالناصر فقد قلمه الحبر أثناء حضوره اجتماعا شعبيا فاتصل علي الفور بزكريا محيي الدين الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية في ذلك الوقت وطلب منه البحث عن الشخص الذي سرق القلم. وبعد دقائق عدة عثر عبدالناصر علي القلم فأعاد الاتصال بزكريا قائلا: خلاص يا زكريا .. لقيت القلم.

فصاح زكريا: لقيته إزاي يا فندم؟ ده الرجل اللي خده بيعترف في التليفزيون دلوقت.

فيما يتعلق بهذه النكتة يداخلني شك كبير في أنها مصرية تماما، وارجح أنها تنتمي للإبداع الشعبي الروسي في عهد ستالين، عندما أعدم خمسين ألف شخص اعترفوا علنا في نقد ذاتي جميل أنهم اتصلوا بالإمبريالية العالمية للإضرار بمصالح بلادهم. في الغالب تم تمصيرها بفعل تأثيرات العقل الجمعي المتبادلة بين الشعوب، أو أعاد صياغتها أذكياء ينتمون إلي أطراف معادية أو ناقمة. لقد قيل لنا الكثير عن أنه كان يوجد في أجهزة عبدالناصر قسم خاص لتحليل النكتة، وأنه كان يرفع هذه التحليلات بشكل دوري للقيادة السياسية، وعلي كثرة المذكرات المهاجمة والمدافعة لم يتطوع أحد ممن عملوا في تحليل النكتة بكتابة مذكراته، وهل كانت النكتة فعلا تؤخذ في الاعتبار عند رسم السياسة الداخلية والخارجية؟. من المهم للغاية أن يلقي أحد الضوء علي هذه المنطقة المظلمة. في تقديري الشخصي، كانت النكتة يتم رفعها فعلا للقيادة السياسية كجزء من تقارير الرأي العام، وعلي الأرجح كان يتم تسخيفها بوصفها من صنع عناصر الثورة المضادة. ولكن لا شك بالطبع أنها كانت مصدراً للترويح عن النفس عند بعض الأفراد في قمة السلطة يتسم عملهم بالتوتر الشديد.

في عالم تكتنفه آلاف التعقيدات، من المستحيل النفاذ إلي الحقيقة بغير قوة النكتة الذكية ذات التركيبة الدرامية. وروح المرح لن تملأ جيوبنا بالمال، ولكنها ستجعل منا أحراراً (إيمرسون) والحكمة بغير قليل من الملح والفلفل لا تعدحكيمة، ديورانت (قصة الفلسفة) هكذا تكون الحقيقة والحرية والقدرات النقدية العالية والتهذيب وروح المرح شيئا واحدا، هل تري للإنسانية معني آخر؟ نحن ندافع عن هذه الإنسانية، هناك بالطبع من يملكون أشياء أخري تعوضهم عن غيابها، ولكن ماذا نفعل نحن سوي الدفاع عنها بعد أن تأكد لناأننا لا نملك شيئاً سواها؟ أخشي أن أكون خرجت عن موضوعي في وقت يشكل فيه الخروج عن الموضوع خطرا لا يقل عن خطر الدخول فيه، أعود لموضوعي.

الصدمة هي خير معلم للبشر، أفراداً وجماعات، ولقد كانت الفترة من ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ حتي وفاة عبدالناصر في سبتمبر ١٩٧٠ هي فترة (الصدمة - الألم - الاستبصار) للعقل الجمعي، ولكني لن اتعرض لنكتة واحدة قيلت في ذلك الوقت مفضلا إرجاء ذلك لفرصة أخري، كما أني سأقفز بعيداً إلى مرحلة أخري هي فترة حكم الرئيس السادات لكي أصل إلي الفترة من مبادرة السادات في نهاية عام ١٩٧٧ إلي ما بعد الوصول إلي اتفاقية كامب ديفيد التي كانت اطاراً لاتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية. كيف رأي العقل المصري مبادرة السادات؟ وما هو رأيه في اتفاقية كامب ديفيد؟ وما هو موقفه من السلام عموما؟

قد تكون الإجابة: يا إلهي.. أليست الإجابة واضحة وكافية في اطنان الكلمات والمقالات والمسلسلات والأفلام ضد السادات وضد اتفاقية كامب ديفيد وضد السلام وضد التطبيع، التي انتجها مثقفون هم بالحتم (ضمير الأمة)؟.

وأرد: كلا.. ليست واضحة ولا كافية ولا مقنعة، ولا تعبر عن

الحقيقة، تماما كآلاف الأطنان من الكلمات التي قيلت لأكثر من سبعين عاما ممجدة الاتحاد السوفيتي بوصفه أعظم الأنظمة السياسية التي عرفتها الأرض وأكثرها خيراً وعدلا وقدرة علي التنمية ثم اتضح لنا أن العقل الجمعي للشعب الروسي ولشعوب أوروبا الشرقية له رأي آخر.. رأيٌ بعيد تماما عن رأي وموقف (ضمير الأمة) من المثقفين المحترفين كارهى الحقيقة أو العاجزين عن تحمل مسئولية إعلانها، حتي مذكرات السياسيين عن فترة السادات، لست أثق بحرف واحد فيها. ففي مذكرات نشرت حديثاً، حرص صاحبها علي تعظيم دوره فقال إنه نصح السادات بأن يذهب إلي عبدالناصر ليسري عنه بعد انتحار المشير عامر ووقوع عبدالناصر فريسة للاكتئاب، ونصحه بأن يأخذ معه شريط فيديو مسليا. الطريف أن اختراع شريط الفيديو ظهر في الأسواق بعد موت عبدالناصر بسبعة أعوام علي الأقل.

نعم، هناك عشرات النكت ظهرت في فترة حكم السادات محتواها جميعا يدين خصالا فيه وسلوكه في إدارة أحداث كثيرة ومعظمها مصري طازج دما ولحما، ولكن ولا نكتة مصرية ظهرت تدين مبادرته أو تدين اتفاقية السلام، والنكات القليلة التي ظهرت كانت واضحة الافتعال عن أصول غربية قديمة تتسم بالعدوان وانعدام التهذيب والافتقار إلي البناء الدرامي القوي وهو ما لا تعرفه النكتة المصرية. لذلك اختفت بسرعة ولا شك أنها كانت جزءاً من الحملات السياسية ضده.

قد تجد في منهجي من اعتماد النكتة أداة كاشفة للحقيقة، نكتة في حد ذاتها وقد تبتسم أو تقهقه ضاحكا، عندها سأسألك: هل يوجد لديك أدوات أخري للوصول إلي الحقيقة فى منطقتنا يمكن الوثوق بفاعليتها؟

محتويات الكتاب

الصفحة

كتب صدرت فى كتاب اليوم

■ اغسطس ٢٠٠٥■

الحريم والسلطة

«من اميرات الشرق
الى عاهرة الجمهورية»

الكاتبة
سلمى قاسم جودة

حكايات واقعية تحكى أسرار خفية لنساء احترفن التسلق على غرائز الرجال من اجل الوصول للسلطة وتكشف القصص السرية لزواج الجمال والسلطة.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ سبتمبر ٢٠٠٥■

نجيب محفوظ والاخوان المسلمون

الكاتب
مصطفى بيومى

كتاب يكشف كيف ظهرت الشخصية الاخوانية فى ادب (نجيب محفوظ) وكيف رسمها بقلمه وحلل اعماقها وغاص فى تركيبتها النفسية عبر مراحل تاريخية مختلفة.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ أكتوبر ٢٠٠٥■

المسلمون فى الصين

الكاتب
د. عبدالعزيز حمدى

يقدم الكتاب صورة طبيعية لحياة المسلمين فى الصين وكيفية ممارستهم فروض العبادة يرصدها كاتب عاش التجربة الصينية وتجول فى اعماقها بفكر باحث منقب وقلب عربى مسلم.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ نوفمبر ٢٠٠٥■

ملكة تبحث عن عريس

الكاتب
رجاء النقاش

كتاب يحوى مجموعة من القصص والحكايات تلعب فيها المرأة دور البطولة المطلقة ويقدم نماذج لشخصيات نسائية مختلفة غيرن مجرى التاريخ.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ ديسمبر ٢٠٠٥■



الحب والضحك والمناعة

الكاتب
د. عبدالهادى مصباح

كتاب يتناول امور حياتية تهم كل انسان وتثير فضوله مثل الحب والعدوى والنوم والساعة البيولوجية والضحك والانفعالات وذلك من خلال تقديم المعلومة الصحية بأسلوب أدبى رشيق.

(الثمن: ٦ جنيهات)

■ يناير ٢٠٠٦■

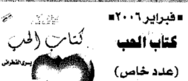
عبقرية المسيح
(عدد خاص)

الكاتب
عباس محمود العقاد

أول عدد فى سلسلة «روائع كتاب اليوم». ويكشف فيه العقاد بأسلوبه العميق الجميل سر العبقرية المسيحية واثرها فى تغيير مجرى التاريخ الانسانى ويقدمها فى صورة عصرية.

(الثمن: ٨ جنيهات)

■ فبراير ٢٠٠٦■



كتاب الحب

(عدد خاص)

الكاتب
يسرى الفخرانى

كتاب يتناول الحب كفلسفة للحياة.

سؤال يطرحه على صفحات الكتاب

الكاتب: يسرى الفخرانى

(الثمن: ٨ جنيهات)

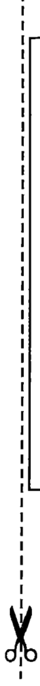
بطاقة فهرسه

فهرسه أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

رقم الايداع ٤٣٧٩ / ٢٠٠٦

I.S.B.N.977-08-1251-X

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر



كوبون اشتراك

الاســــــــم: ....

العنــــــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا شيك مصرفى

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك مصرفى لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك اعتبارا من / / ٢٠٠

تكنو & تكنوجاز



متوافر لدى القطاعين العام والخاص ولدى معارض الشركة

05540739



الثمن 6 جنيهات
طبع بمطابع أخبار اليوم